عباس محمود العقاد

مطلع النور

أو طوالع البعثة المحمدية

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تصديـــر

لا شك في أن العقاد أديـــب كبير ، ومفكر عظيـــم ، وشاعر مبدع • ولا شك كذلك في أنـــه مؤرخ اسلامـــي أحاط بأسرار التاريخ الاسلامي احاطة تدعو الى الاعجاب ، وتجعل القـــارىء مطمئنا الى النتائج التي وصل اليها ، مرتاحا الى الحقائـــق التي أبرزها في أبحاثه ودراساته •

ويلاحظ أنه في أبحاثه التاريخية ، وفي كتابة سير العظمـــاء يعتمد على أصول ومباديء تجدها واضحة صريحة في كل بحث وكل سيرة • وهذه المبادىء والأصول ترتكز على المام شامل بكل جانب من جوانب الموضوع الذي يعالجـــه ، واطـــلاع واســـع مستفيض على كل ناحية من نواحيه مهما كانت بعيدة الأطراف ، ممعنة في السرية والخفاء • كما ترتكز على التحليل الدقيق ، والتعليل المنطقي ، والموازنة بين الأحداث والأشخاص بميزان العدل والنزاهة والحياد •

وهذا الكتاب الذي نقدمه الى القراء بطبعتـــه الجديدة مثال رائع لالتزام العقاد بهذه المبادىء تتجلى في جميع فصوله •

ونشير هنا الى أن الغاية التي يرمي اليها العقاد من تأليف هذا الكتاب هي اثبات أن بعثة محمد عليه السلام ، وظهور الاسلام دعت اليهما حاجة العالم ، في زمان بروزهما ، الى انقاذه من تيه الضلال الذي كان يتخبط فيه ، وهدايته الى نظام جديد يكفل له سعادة الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة • وقد كان هذا شأن كـــل ديانة سماوية برزت في ناحية من نواحي الأرض ، الا أن الاسلام كانت دعوته شاملة غير مقتصرة على البيئة التي نشأ فيها حتى يمكن القول بجزم وبغير تردد أنه أريد به أن يكون دين المستقبل للانسانية جمعاء •

وقد كان العقاد موفقا كل التوفيق في تصوير حالة الديانات السائدة في زمن البعثة المحمدية ، وابتعاد أصحابها عن جوهرها الفريد ، وفحواها الرشيد • كما كان موفقا منتهى التوفيق في وصف ما كانت عليه حالة الشعوب في ذلك الزمان ، سواء ما كان منها سائدا أو مسودا ، ومدى ما بلغته من الانحطاط الخلقي والمعيشي في جميع مرافق الحياة •

هذا فضلا عن ايغاله في بحث ما كان عليه العرب في الجزيرة العربية ومختلف شؤونهم الدينية والاجتماعية والقبلية واللغوية والظروف التي هيأتهم لتقبل الرسالة الاسلامية ونشرها في أنحاء الأرض ، والأسباب التي ميزت قريش عن سائر العرب ، وبني هاشم عن سائر بطون قريش ، ومحمد عليه السلام عن سائر القرشيين وعظماء رجالهم •

كل هذا وغيره من حقائق التاريخ الاسلامي يجده القارىء في هذا الكتاب الفريد الذي تفضل باعادة طبعه السيد شريف الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ؛ فله أخلص الشكر ، وأجزل الثناء •

م• ل

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية ـ بعثة محمد عليه السلام ـ وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضى اليها

ومقدمات تأتى النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها ..

مقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الموت ، فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة فى طبائع الأشياء

ومقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الدواء ، فليس هو بنتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه ..

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة

ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولا سيما حين تأتى الحاجة الى الشفاء من غير المريض ، بل تأتى على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الانسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد أن كان الايمان تابعا للمعجزة ؟ ..

كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها ؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات

وهذه هى المقدمات التى لا تأتى بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله الى حيث يشاء

فليست الجاهلية مقدمة للاسلام

وليس الفساد فى العالم سببا للصلاح

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هى التى بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ، ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التى قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله

هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية

وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذى شفى غلى يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى منه الى الشفاء

وتلك هى المقدمات وتتائجها كما تتجه بها عناية الله

رسول يوحى اليه فيصنع الأعاجيب

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله

فاذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه . فلا تفسير له عندهم الا أن الفساد يصلح الفساد ، وان الداء يشفى الداء ، وان الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب الى حيث لا يقضى الذهاب ..

جاء محمد بدين الانسانية فى أمة العصبية

جاء ينكر كل اله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل اله غير الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام

أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟

أدنى القولين الى عقـل العـاقل أدناهما الى الايمان ، وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله

ولولا تدبير من الله لما ادّخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة ، لتخرج بالتاريخ الانسانى كله الى عالم جديد

***

وسنرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات فلا تستقيم الا بمقدمة واحدة ، وهى رسالة النبوة وعناية الله

وسـنبدأ بالمقـدمات من طوالع الغيب فى تأويل المتأولين الى وقائع الحس والعيان فى أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ، وأحوال البيت الذى طـلع منه نور النبوة ، وبزغ منه فجر التـاريخ الجديد فى كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله

ونرجو فى نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكر وبديهة الايمان

وعلى بركة الله ..

الطوالع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقـدمات التى سبقت البعثة المحمدية بنوعيها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها وتؤدى الى خلافهـا ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات ، بل هى العلاج الذى يزيلها والآية الالهية التى تحول الأسـباب الطبيعية الى طريق الحكمة الأبدية التى تنكشف أوائلها من خواتيمها ، خلافا للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم ..

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر فى الآيات الكونية والمعانى التاريخية ، لأنها ولا شك عنوان ارادة الله المتصرف فى الكون كله ، ولأنها ـ على هذا ـ مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الاسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقـل فى حقائق السماوات والأرضين

رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية ان ارادة الله ظاهرة فى ملكه وآيات خلقه ، وان الناس مطالبون بالنظر فى هـذه الارادة قبل النظر فى المعجزات والخوارق التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على امكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس الى قدرة الله خالق الكون الا كالمألوفات التى تجرى بها العادات فى كل يوم ، فاذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذى

خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتى بالمعجزات كما يأتى بالمنظور المطرد من النواميس والعادات ، وعقيدتنا فى ذلك عقيدة الامام الغزالى رضى الله عنه حيث قال غير مرة ان الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ولا تجرى بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا ارادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الالهية التى تسخر كل شىء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فان العقل الذى يقول ان المادة لا توجد الا هكذا أضيق من العقول التى تصدق كل شىء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟.. وهل كان لها أثر مشهود فى الاقناع بالدعوة كما ينبغى لكل معجزة ، أو كانت فى تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك ان الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث فى غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التى تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم

وقد أشرنا الى ذلك فى كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا ان « علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ، فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟.. واذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟.. وقد خلق محمد ابن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلأى شىء خلق ؟.. ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟.. لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراء ، ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل

صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال ، ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد .. فالذى أعده له زمانه ، وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها ، وما من أحد قد أعد فى هـذه الدنيـا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد »

وقلنا عن بشائر الرسـالة المحمدية ان المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسـير الايمان وتفسير العيان وتفسـير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشـائر التى سبقت الميـلاد أو صاحبت الميـلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟ ..

« لا موضع هنا لاختلاف

« فما من بشـارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحـد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا انها علامة على شىء أو على رسـالة سـتأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسـالة بعد البشـائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفـال كثيرون فى مشارق الأرض ومغـاربها . فاذا جاز للمصـدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصـدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين ، يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين . أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها

فهى علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ »

***

على هذا المحك البسيط نعرض أخبار الخوارق والمألوفات فى تاريخ الدعوات النبويه ، وينبغى أن نقرر فى هذا المقام ــ لأنه مقامه الذى يذكر فيه ــ ان المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية انما يختار هذا الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الاسلام فى تدبر الآيات والبحث عن حقائق الموجودات ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد اتباع الأديان المختلفة على أمثالها ، وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثالها فى المصادر التى يؤمنون بها ولا يشكون ، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التى يثوب اليها ــ لو شاء ــ كما يثوب غيره ، وانما يعتمدها توثيقا للبينة وايثارا لأفضل الحسنيين فى مقام المقابلة بين المتشابهات

ومن الحسن أن نأتى على أمثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه السلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون . ونلاحظ ان هؤلاء المؤرخين ، أو أكثرهم ، من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التى تتكلم غير العربية ، وسر ذلك انهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الاتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الاسلامية ، فهم يتوخون الزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أو راجحا فى الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ..

ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التى يستدعيها المقام ولا يجوز اهمالها

فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الاجمال

من هـذه الكتب كتاب باللغة الانجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فديارتى » وسماه « محمـد فى الأسفار الدينية العالمية » واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ؛ ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر اننا اطلعنا على شـاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية

يقول الأستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا Sama Vida من كتب البراهمة ، وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها ان « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » ..

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن أحـدهم « سينا اشاريا » Syna Acharya انه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « اهم » و « آت » و « هى » .. وحاول أن يجعلها تفيد « اننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » . قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه ان العبارة منسوبة الى البرهمى « فاتزا كانفا » Kanva من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو ـ وحده تلقى الحكمة من أبيه

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه انه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية الى الكعبة وهى باب أبراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى

وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ؛ ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال ؛ وهى فى قوله : جبل خليج وجبل قعَيقعان وجبل هندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أبى حديد وجبل أبى قبيس وجبل عمر

ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الانسان ومنافذه ، ولا يذكره لأنه ــ على مايظهر ــ يخالف وصف القداسة الروحية فى البرهمية ، ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف ان النبى محمدا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار الى حرب أهل مكة وهزيمة « العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة الى جانب النبوءة مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu، ويدعو الى اله واحد لم يكن له كفؤا أحد (هيج جيز باونسار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز وانجام وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاى سوى وتن آسا وتنانى ورنك وبوى است »

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه فى الاسلام : أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتيه ، تنبىء عن دعوة الحق التى يجيء بها النبى الموعود وفيها اشـارة الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معنـاها بغير تصرف « ان أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ، وهى الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وان نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١)

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الاسيوية الكبرى الى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال : ان النبى عليه السلام هو المقصـود بما جاء فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سـعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم »

وجاء بالنص العبرى كما يلى :

« ويومر يهووه مسينائى به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لامو »

فترجمه هكذا : « وقال ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس ، وخرج من يمينه نار شريعة لهم »

وقال ان الشواهد القديمة جميعا تنبىء عن وجود فاران فى مكة ، وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتى يوسبيوس Eusebius « ان فاران بلد

(١) صفحة ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures

عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من ايله »

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صـــدرت فى سنة ١٨٥١ ، ان اسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز ، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » ، ثم قال ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه ان بنى اسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة فى برية فاران » ... ولم يسكن أبناء اسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال ان جبل فاران واقع الى غربها . وفى الاصحاح الثالث من كتاب حبقوق ان « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو اذن الى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذى تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربيـــة . ولم يحدث قط أن نبيا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام ، وقوديش تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم « ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم أبناء ابراهيم » يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء ابراهيم تقدمه فى الزمن ، ويرجح المؤلف ان المدينة التى تعلم فيها موسى عليه السلام فى صحبة يثرون ــ أى شعيب ــ لم تكن هى مديان الأولى التى تخربت بالزلزال كما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنها كانت « مدينة » الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك ان بطليموس الجغرافى يقول بوجود موضعين باسم مديان وان كان قد أخطـأ على رأى المؤلف فى تعيين الموضعين . وقد جاء فى سفر التكوين ان مديان بن ابراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذى يقول نوبل Knobla شارح التوراة ان ذريته كانت تنزل فى عهد البعثة الاسلامية الى جوار يثرب ، ولعل موسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار . اذ كانت تسميته العربية أرجح من تسميته المصرية أو العبرية ، فان ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين

العبريين ، وصحيح ان كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لايرتضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين

***

ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثا مسهبا فى مقدمة الترجمة ، شرحت فيه بعض ماتقدم شرحا مستفيضا ، وزادت عليه ان نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهى التجلى من سيناء وقد حصل فى زمانه والتجلى من سعير أو جبل أشعر وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ــ على قول الجماعة الأحمدية ــ واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر ، واما التجلى الثالث فمن أرض فاران وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب ان الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأرض بالرياحين من « برية فاران » .. وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد ابراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ، ولا وجه لانكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب ، وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش ، الذى يقرر الشارح كاتربكارى Katripikari انه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبلينى ان أبناء قدور ــ وهو قيدار الابن الثانى لاسماعيل ــ قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودى يوسفيوس اليهم أبناء ادبيل الابن الثالث فى ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة الى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر اخوتهم الباقين فان الأماكن التى تنسب اليهم لا تزال معروفة بأسمائها الى الآن ، ومن

نبوءة اشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى اشعيا من الاصحاح الحادى والعشرين : « وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء .. وافوا الهارب بخبزه فانهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب . فانه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار »

ويعود المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير

***

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الاصحاح الخامس فى سفر اشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فاذا هم بالعجلة يأتون .. ليس فيهم رازح[1] ولا عاثر ، لاينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم احقائهم[2] ولا تنقطع سيور أحذيتهم . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم[3] كالزوبعة .. »

وهذه نبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الاسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الاصحاح الثامن فى سفر اشعيا جاء فيها ان الرب أنذره أن لا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى اسرائيل وفخا وشركا لسكان اورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون ..

(١) زازح : رزح سقط من الاعياء أو الهزال . وفلان ضعف وذهب ما في يده . (٢) أحقائهم : جمع حقو بالفتح وهو الخصر . (٣) بكراتهم : البكرة

صُرَّ الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذى . فاصطبرْ للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره »

فهـذه النبوءة عن الرسول الذى يختم الشريعة تصـدق على نبى الاسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اشعيا يذكر فيها ايمان مصر بالرسول المنتظر « وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمهـا ، فيـكون علامة وشـهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون الى الرب بسبب المضايقين ، فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم ، فيعرَف الرب فى مصر ، ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به ، ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا ، فيرجعون الى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . فى ذلك اليوم تكون سكة من مصر الى اشور فيجىء الاشوريون الى مصر والمصريون الى اشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . فى ذلك اليوم يكون اسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر وعمل يدى اشور وميراثى اسرائيل »

فالذى حدث من قدوم أهل العراق الى مصر وذهاب أهل مصر الى العراق انما حدث فى ظل الدعوة الاسلامية ، ولم تتوحّد العبادة بينهم قبل تلك الدعوة ، وان النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو اسرائيل ، اذ تكون البركة لمصر واشور ولا تكون اسرائيل الا لاحقة بكلتا الأمتين

***

ثم ينتقلون بالنبوءات الى سفر دانيال حيث جاء فى الاصحاح الثانى : « انت أيها الملك كنت تنظر واذا بتمثال عظيم .. هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيـد ، وصدره وذراعاه من فضة ، وبطنه وفخـذاه من نحاس ، وسـاقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعضُ من خزف . كنت تنظر الى ان

(١) صر : صر الدراهم جمعها ووضعها في صرة . وكل شيء جمعته فقد صررته .

قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا ، وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح ، فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها » ..

***

ويلى ذلك تفسير النبى دانيال لهذا الحلم اذ يقول : « انت أيها الملك ملك ملوك لأن اله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد ، لأن الحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها قوة كالحديد من حيث انك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما ان الحديد لا يختلط بالخزف ، وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لايترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت الى الأبد ، لأنك رأيت انه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب .. الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين » ..

وتعود الجماعة الأحمدية الى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دانيال لتلك الرؤيا ، فمن كلام النبى دانيال يفهم ان الرأس الذهبى هو ملك بابل ، وان الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس

(١) كعصافة : العصافة بالضم ما سقط من السنبل من التبن وغيره .

وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل ، وان الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الاغريقية فى ظل الاسكندر ، لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وان القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانيـة التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الاسكندر ، وتقول الرؤيا عن هـذه الدولة الأخيرة ان قدما من قدميها خزف والأخرى حديد ، وهو وصف يشير الى جزء من الدولة فى القارة الأوروبية وجزء منها فى القارة الاسيوية ، فالقدم الحديد هى سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهـذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الأخيرة لهذا السبب ، وتستطرد من ثم الى أمور أهم وأخطر اذ تقول : « انك كنت تنظر الى ان قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها .. »

***

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الاسلام . فقد اصطدم الاسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الاغريق الاسكندرى فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطـانها على بابل ، ثم ضربتهما قوة الاسـلام فانسحق حينئـذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، وهكذا ينبىء ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دانيال انباء لاريب فى معناه .. اذ كلنا نعلم ان بابل خلفتها فارس وميدية وان سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الاسكندر ، وان ملك الاسكندر خلفته الدولة الرومانية التى أقامت من

عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوروبية آسيوية ، ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الاسلامى وغزوات النبى والصحابة »

وهذا الحجر الذى جاء فى رؤيا دانيال يذكره اشعيا والحواري متى ؛ ففى الاصحاح الثامن من سفر اشعيا انه « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى اسرائيل ، وفخا وشركا لسكان اورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون »

وفى الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى يقول : « لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة اذ يقول : « ان الحجر الذى رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية »

***

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى المتقدم ذكره ان هذه النبوءة تنبىء عن زمن غير زمن السيد المسيح ، اذ يقول عليه السلام : « اما قرأتم قط فى الكتب ان الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا »

ثم تقضى النبوءة ــ نبوءة النبى دانيال ــ الى عقباها ، فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الأرض كلها . فان هذا هو الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فان الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله فى ذلك العصر ، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدى أتباع محمد ألف سنة

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ، ويستشهد جماعة الأحمدية بالاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلا آخر . كان انسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب

---

(١) الحواري : ناصر الانبياء .

وقت الاثمار أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم أرسل اليهم ابنه أخيرا قائلا انهم يهابون ابنى . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟.. قالوا له انه يهلك أولئك الأردياء هلاكا رديئا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها .. قال لهم يسوع أما قرأتم قط فى الكتب ان الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟.. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا .. لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنه والفريسيون أمثاله عرفوا انه تكلم عليهم ، واذ كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى »

***

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون ان السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمع . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى دنياه ، والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم الى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم الى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة اسحاق ، وهى أمة اسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه انهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض

وتتلو هذه النبوءة فى انجيل متى نبوءة متممة من الانجيل نفسه حيث

جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لبنى اسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم انكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب »

وفى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاويين « اذ سألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر . وقال انى لست أنا المسيح . فسألوه : اذن ماذا ؟.. أأنت ايليا ؟.. فقال لا .. قالوا : أأنت النبى ؟.. فأجاب : لا .. فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟.. ماذا تقول عن نفسك ؟.. قال : أنا صوت صارخ فى البرية ، قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبى »

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقولون انها كانت ثلاثا فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة : نبوءة عن عودة ايليا ، ونبوءة عن مولد السيد المسيح ، ونبوءة عن نبى موعود غير ايليا والسيد المسيح

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من انجيل متى : « ان جميع الأنبياء والناموس الى يوحنا تنبأوا ، وان أردتم أن تقبلوا فهذا ــ أى يحيى المغتسل ــ هو ايليا المزمع أن يأتى »

***

وواضح من الأصحاح الأول من انجيل لوقا ان الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولدا وتسميه يوحنا .. « وانه يكون عظيما أمام الرب لايشرب خمرا ولا مسكرا ، ويمتلىء من بطن أمه بالروح القدس ، ويرد كثيرين من بنى اسرائيل الى الرب الههم ، ويتقدم أمامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الآباء الى الأبناء »

وفى الأصحاح التاسع من انجيل مرقس يقول السيد المسيح : « ان ايليا أيضا قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه »

ويتكرر ذلك فى انجيل متى اذ يقول : « ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا »

---

(١) الناموس : الشريعة .

فالنبى ايليا قد تقدم اذن فى عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح أيضا ثم بقى ذلك النبى الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبى صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح فى الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا يبين للتلاميذ « انه خير لكم أن أنطلق لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . فأما على خطيئة فلأنهم لايؤمنون بى ، واما على بر فلأنى ذاهب الى أبى. ولا ترونني أيضا ، واما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين ، وان لدى أمورا كثيرة أقولهـا لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لايتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، وكل ما للأب فهو لى . لهذا قلت انه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لا تبصروننى .. »

وقد جاء نبى الاسلام ممجدا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لأنها رسالة الله

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختتم الجماعة الأحمدية بحثها بالاشارة الى ما جاء فى الاصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبىء عن تتابع النبوءات من صمويل الى السيد المسيح بظهور نبى كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لأبناء ابراهيم ويبارك جميع قبائل الأرض ، ويكون هذا النبى من أخوة بنى اسرائيل لا منهم . فهو من ذرية اسماعيل لا من ذرية اسحاق

***

ان أبناء الهند وأبناء فارس ــ كما قدمنا ــ قد توفروا على هـذا الدأب[1] فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقـابلة بين المضامين والتأويلات واتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هـذه النبوءات وهـذه الطوالع خاصة

(١) الدأب : العادة والشأن .

وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت فى كتاب « فتح الملك العلام فى بشائر دين الاسلام » (١) متفرقات لم ترد فيما أسلفنـاه من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، نلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لأنه يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة

يعتمد المؤلفان على الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين اذ جاء فيه ان أبناء اسماعيل سكنوا « من حَويلة الى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور » فهم اذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض التى بين شـور وحويلة اذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الاصحاح العاشر « ان يقطان ولد المورداد ، وشـالف ، وحضرموت ، ويارح ، وهدورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، واوفير ، وحويلة ، ويوباب ـ جميع هؤلاء بنو يقطان » سكان الأرض اليمانية ..

ويعتمدان كذلك على وعد ابراهيم الخليل فى سـفر التكوين « لأنه باسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » .. وانما شرط الوعد لأبناء اسحاق باتباع وصايا الرب وأن لايعبدوا الها غيره والا فهم يبيدون سريعا عن الأرض الجيدة كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التثنية . وقد عبـد القوم أربابا غير الله واتخذوا الأصنام والأوثان كما جاء فى مواضع كثيرة من كتب العهد القديم

***

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النبى دانيال ..

وفى الاصحاح التاسع منها يقول : « سبعون أسـبوعا مقضيـة على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختـم الرؤيا والنبوة ولمسـح قـدوس القديسين ، فاعلم وافهم انه من خروج الأمر لتجديد اورشـليم وبنائها الى المسيح الرئيس سبعة أسـابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى

(١) لمؤلفيه الاستاذين احمـد ترجمان ومحمد حبيب

سوق وخليج فى ضيق الأزمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعا يقطع المسيح . وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة ، والى النهاية حرب وخراب .. وعلى جناح الأرجاس »

وهذه الخاتمة هى التى تتم كما جاء فى سفر اشعيا « على يد شعب بعيد من أقصى الأرض » أو كما جاء فى سفر التثنية « ان الرب يجلب أمة من بعيد من أقصى الأرض .. ثم يردهم الى مصر فى سفن »

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى الى مصر وطائفة الى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢ . فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن الى الديار المصرية وما وراءها

يقول المؤلفان ، ويعتمدان فى ذلك على اجماع الشراح ، ان اليوم من أسابيع دانيال سنة ، واننا اذا أضفنا أربعمائة وتسعين سنة الى ١٣٢ فتلك سنة ٦٢٢ التى هاجر فيها النبى عليه السلام الى مدينة يثرب ، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الاسلام القدس الشريف وبنى المسجد الأقصى فى مكان الهيكل ، وكان الفرس قد ملكوا فلسطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود اقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاهم المسلمون . فكانت السنون التى مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التى ارتفع فيها الحَجَر عن اليهود ، على عهد الدولة الفارسية ..

***

هذه العلامات انما هى نماذج لأضعاف أضعافها لم نحصرها لأنها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعا لأن الأمثلة المتقدمة تكفى للتعريف بها ، وان لم تجمعها بحذافيرها . ونحن أمام هذه البحوث المستفيضة نتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها فى هذه الرسالة التى لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعا وبين النقص وهو اهمال هذه البحوث كل الاهمال فى رسالة

تدور على بيان مقدمات النبوة الاسلامية وعلى الآراء المختلفة فى شرح ما سبقها من هذه المقدمات ، ومهما يكن من رأى القارىء فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الاسهاب والتفصيل فى نقد الأساليب التى يعتمدها انباخثون فى حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح فى بعض الأحيان ، ولكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام الى يومنا هذا يرى ولا شك ان العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للألفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وانما ننظر اليها على كل احتمال مفروض فلا نرى انها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم ان قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالاسلام فى الزمن الحديث

***

فاذا فرضنا ان التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فان هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرأون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الانكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم ، واذا قدرنا ان هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الاقناع والذيوع التى اعتمدت عليها

هذا على تقدير الصحة والصواب فى كل تخريج وفى كل علامة مذكورة مشروحة ، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا اذن الى تعقيب طويل أو قصير ..

---

(١) اعتسافا : اعتسف الطريق : عدل عنه . والامر ركبه بلا روية .

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيهـا الرأى الذى يسلمه المنصفون ، ولا يجرؤ أحد على انكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح

فما من أحد يجرؤ على أن يقول ــ باسم العلم ــ ان الالهام بالغيب مستحيل . لأنه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم ..

يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا انه عرف حقيقة الزمن وعرف ــ من ثم ــ حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان

فما هى حقيقة الزمن ؟.. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟.. وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد ان لم يكن له وجود ؟..

ان العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق

فاذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا الى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لايدخـل فى باب الممتنعات أو غير المعقولات ..

***

واذا كان عنصر العقل فى هـذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه الى عقل الانسان جائز جدا أو جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول . ولا ندعى ان هذا الانتقال الفكرى بين عقول الناس قد ثبت فى هذا الزمن ثبوتا قاطعا فى جميع التجارب والمحاولات . فان هذا الانتقال ــ المسمى بالتلباثية ــ يصيب ويخطىء ، ويكفى انه لم يبطل كل البطـلان باعتراف

الملحدين والماديين الى جانب المتدينين والمؤمنين

فاذا كان وجود المستقبل لم يبطل ، فكيف يبطل العلم بما جرى فيه ؟..

انه قد يبطل اذا تحقق بالبينة ان عنصر العقل وراء عقل الانسان مستحيل ، فاذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل فى باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بانكار الغيب وانكار العلم به أو الايحاء به الى انسان من الناس فانما هى دعوى تهجم على الواقع ولا يكفى أن يقال فيها انها تهجم على الغيوب والمجهولات

فليكن رأينا اذن فى تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون ، فان هذا الرأى لا يبطل الايمان بالغيب الا على لسان مجازف يخبط بالقول حيث يجهل المدى الذى يخوض فيه . وانما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا فى التخريج والتأويل ، وانما نقبلها أو لا نقبلها كرة أخرى لأن قيام الدعوات النبوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض فى سبيله على اختلاف هذه العلامات ..

أما الانباء بما فى الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان

مقدمات النبوة

والآن ، وقد أقررنا الطوالع والعلامات فى قرارها الذى يسهل الإتفاق عليه ، نطرق الأبواب الواسعة التى تتفتح أمامنا للبحث فى مقدمات النبوة الاسلامية ، وهى أبواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس أثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الاسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات

تاريخ العالم كله ــ قبيل عصر الدعوة الاسلاميّة ــ هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من أجوافها الى أطرافها ..

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالاجمال انها حالة فساد وانحلال

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات

واذا نظرنا الى الأحوال فى جملتها وجدنا انها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة الى الدعوة الدينية

ان ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعا فى طياتها ، وهى فقدان الثقة بكل شىء ، ولا معنى لذلك فى كلمة موجزة الا ان الثقة هى المطلوبة ، وان الايمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى[1] فى كل مكان

ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت فى العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية ، وهى على حسب قدمها المجوسية واليهودية والمسيحية

---

(١) استشرى : تفاقم وعظم .

المجوسية

فلم يكن اتباع دين من هذه الأديان على استقرار فى عقيدتهم أو على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطرابا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى نشملها الثنوية أى الايمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر فى كون واحد

فقد كانت هـذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون ، وقد عمـل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية ، واخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل ، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة فى نحلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنهم على البعد الى عصر الميلاد المسيحى الا انهم رصـدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام

وقام « مانى » الذى تنسب اليه المانوية فى القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلق باب الوثنيـة فى الشرق ويرجع الى ثنوية قريبـة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية ، فحول قومه من الكتابة البهلوية الى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح فى اقناع ولاة الأمر بآرائه فى الاصـلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسـائس الكهان والوزراء ، فقضى فى السجن وقيل انهم سلخوا جلده وعلقوه مصـلوبا لسباع الطير ..

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهـد قباذ أبى كسرى انوشروان الذى حضر بعثة النبى وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ..

ففى عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الاباحة والفوضى فى الأموال والأعراض ، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحـدة من الثنوية الى التوحيد ، أو ما يشبه التوحيد ، وقال كما قال « مانى » من قبله : ان العالم كله فى قبضة اله النور واله الظلام ، غير انه زاد عليه « ان النور

(١) نحلة : بكسر النون : الدين والمذهب

يفعل بالقصد والاختيار وان الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، وان النور عالم حساس والظلمة جاهلة عمياء ، وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار »

وزعم مزدك هذا انه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وانه لما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، فقد أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، ورد القوى الكونية الى أربع هى : التمييز ، والفهم ، والحفظ ، والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثنى عشر روحانيون .. وكل انسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف ، وان ملك الملوك فى العالم العلوى انما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية » (١)

ويقال عن مزدك هذا انه كان عظيم الدهاء خبيرا بفنون الاقناع والاغراء ، وانه بلغ من سلطانه على قباذ انه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق فى ايمانه ويقتدوا به فى ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه اليه لولا أن علم ولى عهده كسرى فدخل عليه باكيا متضرعا يتوسل اليه الا يذله هذا الاذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تمالأت عصبة ولى العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم فى تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعا فى الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد بل حائلا بينهم وبين

(١) الشهرستانى فى الملل والنحل

(٢) الملاحاة : مصدر لاحى يلاحي أي نازع وخاصم . (٣) تمالأت : تمالأ القوم : تعاونوا ، وعلى فلان : اجتمعوا .

الثنوية على بساطتها الأولى ، فان موالاة الارواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم الى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الالهين الأقدمين اله النور ، واله الظلام ؛ ولا يزال المجوس الى اليوم يبدأون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى فى تلاوة الأناشيد التى يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية فى معقلها الأكبر ايذانا حيا بنفادها وانتهائها الى الغاية من الجمود والضيق . اذ كانت المسيحية فى الواقع حركة اصلاح واسع فى جميع العقائد اليهودية التىجمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين الى نقيض الدين ، ولا شىء يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التى حسبت الاله المعبود ملكا لها دون سائر عباده يبيح لها فى سائر الأقوام ما لايباح فى شريعة ولا قسطاس مستقيم ..

وفى عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة الى اصلاح عقائد قومه وشعائرهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزى لتفسير مسائل الكتاب التى لا تقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر فى هذا الصدد انه رجع الى قصة ابراهيم وسارة وهاجر فعبرها على أسلوبه تعبير الرموز ، لأن المسلك الذى نسب فيها الى ابراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده ان سارة هى الحكمة الالهية وان هاجر هى الدربة الدنيوية ، وان زواج الخليل من سارة لم يثمر فى أول الأمر لأنه لم ينضج له قبل التمرس بحقائق الحياة ، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذى أدخله بولس الرسول فى أسلوبه الدينى فقال فى رسالة غلاطية : « انه مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : واحد من الجارية ، والآخر من الحرة . لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ،

(١) الدربة : بالضم : الصراوة ، والمرانه والعادة على الشيء . النور

وأما الذى من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر . لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل اورشليم الحاضرة فانها مستعبدة مع بنيها ، وأما اورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة ... »

وهذه ثورة على تفسير موعد ابراهيم بأسلوب العصبيـة والأنانية تلفت النظر فيما نحن بصـدده وتومىء الى ما يأتى بعـدها فى الزمن المتطاول . ثم سرى الاصلاح المسيحى مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد والاصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهبت ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب فى التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحبار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقـدوا وحدة العقيدة والروح ، فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التى عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وأنكرت كل رأى غير النصوص والحروف فى الكتب المنسوبة الى موسى الكليم . فكان خوف التفرق سبيل النكسة الى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا الى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة أخرى ان اصلاح هذا الجمود الجديد انما أتى من قِبَل البلاد الاسلامية ، على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسى ، وان حكماء اليهود فى القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب فى تنزيه الاله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين ..

وكذلك كان يهود العالم فى عصر البعثة المحمدية : بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبـد الذى ينتمى اليه ، وبين شراذم متعنتين فى الجمود على الحروف والنصـوص يرجعون بهذه

(١) الربانيين : الرباني · المتأله العارف بالله ·

النكسة الى الداء الذى قامت المسيحية لاصلاحه قبل بضعة قرون فتلك حاجة جديدة الى اصلاح جديد

محنة المسيحية

وقد جاء الاسلام والمسيحية منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية شرقا وغربا يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون،من ألوان العذاب يصبونه عليهم ، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليها من محنة الاضطهاد والتعذيب . لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء ، فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضا بالكفر والضلالة ، وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب فى العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعا من حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين فى سبيل الوصول الى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وانما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة الا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الأقوال فى الطبيعة الالهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ، ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضىعلىالبقية الباقية منالثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركنا من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام ، فلا جرم يتردد على الألسنة ، ويدوّن فى كتب التاريخ يومئذ ان القوم جميعا قد استحقوا العقاب الالهى وان أبناء اسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر

(١) المروق والهرطقة الخروج من الدين ببدعة .

الله عقابا للظالمين والمارقين

ويستطيع القارىء أن يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ الا زعازع من هـذا القبيل على عروش الدول والامارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول فى ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه ، أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان حين وثب عليه ، ويتقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا فى البلاد مع اختـلاف الحظوة والنقمة بين الأنصار والخصوم ، فلما تمادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله فى زمن أنصار ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس الى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فاذا بالبلد الواحد ينقلب فى الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال فى نظام ولا فى سلام ولا فى معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال ، وبطل الأمان كما بطل الايمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هى ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب ..

***

هـذه أحوال العالم وهذه هى مقدمات الدعوة الاسلامية من تلك الأحوال : مقدمات لا تأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الالهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار ، وبغير حسبان ..

عالم اذا صح أن يقال عنه انه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فانما كان ينتظر عناية من الله

الجزيرة العربية
قبل البعثة المحمدية

كان فى الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى ، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية فى رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التى تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التى يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى أرض غسان والحيرة ونجران

ويقول ابن قتيبة ان المجوسية كانت معروفة فى قبائل تميم ومنهم زرارة بن عُدُس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم .. ويروى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس ، وان لقيطا ابن زرارة — كما جاء فى ابن الأثير — تزوج بنته دُخْتَنوس وسماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها فقال وهو يجود بنفسه :

يا ليت شعرى عنك دُخْتَنوس
اذا أتاها الخبرُ المرموسُ[1]
أتخلِقُ القرونَ أو تَمَيَّس
لا ، بل تَميسُ انها عَروسُ

والأغلب على الظن ان المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام ، ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئا لأن اشعال النيران للقِرَى والاستسقاء واشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربية ، ولعلهم سبقوها الى عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج الى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم فى سفر الليل حتى جعلوا له اسما خاصا من السُّرى والادلاج وغيرهما من الرحلة فى سائر أوقات الظلام

---

(١) المرموس : رمس الخبر : أخفاه وكتمه · (٢) تميس : تتبختر وتختال في مشيتها · (٣) السرى : السير في الليل · (٤) الادلاج : السير من أول الليل ·

ولعل أحدا منهم لم يكن يلتفت الى مجوسية المجوس الا حين يحدث الزواج بالمحارم التى لا يحلها عامة العرب ، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البـداوة فى الأعراس والمـآتم وتعظيم الأسـلاف والأرواح ، لاينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية ..

واذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم فى عقيدتهم لكثرة قيودها وأشراطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم ، وقد كانوا يخالفون كل دين فى أشياء ويحالفونه فى أشياء ، ويجنحون الى العزلة والاعتكاف فلا يصل الى أسرارهم الا من تعمد البحث عنهـا والنفاذ اليها من طـلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين[1] ، والظاهر من أصول كتابتهم النبطية ان الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطىء اليمانية ، ولهذا وجـد فيهم من ينتمى الى جـد يسمونه كاظم بن تارح يزعمون انه أخو ابراهيم الخليل ، وكيفما كانت علاقة العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية . لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل الى طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء ، وانما ينتقل اليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقـائد الوثنية من حولها ، ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان فى العقيـدة الصابئية ، فان اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة ، واسمهم الأول فى أصله مأخوذ من (سبح) لا من (سبأ) التى ينتمى اليها بعض قبائل اليمن ولا من (صبأ) بمعنى ارتد عن الدين ، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الأسماء ..

وكانت اليهودية أعم انتشارا فى الجزيرة العربية من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة فى عشائر من العرب من سكان بين البحرين .

---

(١) المنحنفين المستقيمين فى الدين العابدين لعباده الاصنام .

ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جملة واحدة الى يثرب على رواية الأغانى « بعد أن ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام »

قال صاحب الأغانى : « لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا آمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية ــ وهى بُطحان ومَهزور ــ وديان من حرة على تلاغ أرض عَذيَة ، بها مياه عذبة تنبت حر الشجر(٢) فرجع اليهم فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذية ومَدَرة طيبة فى متأخر الحرة . فتحول القوم اليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بُطحان ، وكانت لهم ابل نواعم فاتخذوها أموالا ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعة وما سُقى من بُعاث وسموات ، فكان ممن يسكن المدينة . حتى نزلها الأوس والخزرج ، من قبائل بنى اسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قَيْنُقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيص . فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ... وكان هناك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب ، منهم بنو الحرمان : حى من اليمن ، وبنو مرتد : حى من بَلى ، وبنو نيف : حى من بلى أيضا ، وبنو معاوية : حى من بنى سُليم ثم من بنى الحارث بن بهثة وبنو الشطبة : حى من غسان »

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التى تحميهم فيها الآطام والأبنية ، فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة فى المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها ، واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التى كانت تحمل أحيانا ــ كما جاء فى الطبرى ــ على أكثر من ألفى

(١) وبيئه : فاسدة الهواء . (٢) حر السجر . السجر الفاخر .
(٣) الحرة : بالفتح الارض ذات الحجارة السود النخرة .

جمل ، فاستغلوا المال وشاركوا فى قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط انهم غرباء فى بلد غريب ، واجتنبوا المزاحمة فى التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها فى أبدى قريش ، ولكن يقال فى روايات غير حاسمة ان بطونا من نمير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التى سكنها اليهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية الى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بامرة ذرعة المكنى بذى نواس ، فلا خلاف فى وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن ، ولكن الخلاف فى تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها ، لأن المعهود فى بنى اسرائيل المتأخرين انهم كانوا لا يدعون أحدا الى دخول دينهم لايثارهم أنفسهم بوعد ابراهيم الخليل وحصر هذا الوعد فى ذرية اسحاق بن يعقوب ، وقد حدث فى عهد هركانوس الأول المكابى انه أغار على الأدوميين وأكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حين ضعف ايمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية الى أرض الموعد ، وكان تدبيرا حربيا سياسيا دعت اليه الرغبة فى تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فاذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التى تضارع قوة المكابيين فى الشام وفلسطين ؟.. واذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والاقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين فى وعد ابراهيم الخليل ؟ ..

ان الاحتمال الراجح بين هذه النقائض ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبى البابلى لقرب بابل من طريق البحرين الى اليمن ، فان لم تكن موغلة هذا الايغال فى القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود فى أوائل القرن الثانى

للميلاد ، ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة الى أواخر الدولة الحميرية ، ثم وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد أمام تحالف الحبشه والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطىء الشرقية

ومن المعلوم ان الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم فى أرض اليمن ، وكانت ترحب فى بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة أعدائها ، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون ، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التى وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين فى القسطنطينية ، ولم تقبل نصارى الحيرة الا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من أتباع الرومان وانتمائهم الى مذهب النسطوريين

فالدولة الحميرية على عهـد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار ، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لاقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثمة بالتهود لأنها آيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم ــ خفية أو جهرة ــ لشركائهم فى العقيدة أبناء الحبشة ، ولو كان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا الى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد ..

وأيا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فانها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصـلاح والاصـلاح ، ولم تكن يهودية معترفا بها بين بنى اسرائيل فى غير الجزيرة العربية ، وقد نقل الدكتور اسرائيل ولفنسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » رأيا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال : « انهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربيـة ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على

---

(١) العواهل : جمع عاهل وهو الملك الاعظم .

الديانة الالهية الوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما ، وان العالم سيرى ان يعتقد ان اليهودية فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهودية فى اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى »

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى اخوانهم الدمشقيين والحلبيين . فقد روى أوليرى O'leary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « ان بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنيين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون ، وأما ياقوت فانه يقول ان يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا أن بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا الى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

على ان الصبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام ــ أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين ، وما أشبه قينقاع أن ترجع فى أصلها الى كوهنكا !.. وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين ! .. لقد قيل انهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين ، فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان فى وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت الى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود « بيت هام مدراس » ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية ، أو مقدمات النهضة القومية الانسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروسا فى التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهيىء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب الى التقدم والهداية . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة

بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمحالفة والمخالفة

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك . لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب الا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق . فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق الا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق فى حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم فى جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الايقاع بينها واثارة الأحقاد فى المتخاصمين منهم كلما جنحوا الى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان . ولزم اليهودَ أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد ، فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر ، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شىء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع انهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج تفرق اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة ، ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبى عليه السلام وصعود أحدهم ــ عمر بن جحاش ــ على جدار يجلس النبى تحته ليلقى عليه بصخرة من أعلاه . وانما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء فى القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لايقاتلونكم جميعا

الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

« سورة الحشر ١٤ »

وليس فى خليقة من هـذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به الى طريق مستقيم

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبى بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر ، وأوفدوا وفودهم الى كفار قريش ، يعرضون عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها الى حين اجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وايثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التى جاءت بها رسـالة الاسـلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد ابراهيم الخليل . وكان فى سعيهم للتأليب[1] على هذه الدعوة بعض الأناة والحيطة قبل الهجرة النبوية الى المدينة ، لأنهم كانوا يتراوحون فى مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل فى القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن الى مكة الى المدينة الى الشام ، فلما هاجر المسلمون القرشيون الى المدينة وأقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا أن يفسدوا كل ماصنعه الاسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، واستيأسوا فى الكيد والدس ولم يحرصوا على شىء غير استبقاء الربح والتأليب على كل اصلاح وكل مصالحة فى غير هذا السبيل ..

فاذا كان ليهود يثرب أثر فى مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين فى المقاومة والعناد ، واذا استفاد الباحث من تاريخ

(١) للتاليب : الب القوم جمعهم .

هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فانما تأتى هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه ، فانهم كانوا تصحيحا عمليا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربيـة قبل الاسـلام فى عصر المعلقـات والقصائد الجاهلية ، ولقـد كانت وحـدة اللغة من مقدمات الدعوة الاسلامية التى خاطبت العرب جميعا بلسـان يعرفونه من قبـل عصر الاسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسـان القرشـيين والمكيين ، وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين ..

فاليهود فى يثرب أصدق جواب على هـذه الأوهام لأنهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها فى القرن الاول أو الثانى للميلاد ، ولا يجوز الشك فى ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على غير علم ولا روية فيما يصح أن يقال ، فان القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول الى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا فى كتب التوراة لينقطعوا عن أسـلافهم وينضـووا الى قوم مخذولين فى بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول معهم فى عداد شعب الله المختار ، فهذا من أغرب الفروض التى لا تثبت بغـير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغـير دليل ، وليس فى هجرة اليهود من فلسطين الى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم فى القرن الاول أو الثانى للميلاد ، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شىء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الاخرى التى يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون ، مع العـداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على اسرائيل دينا ولغة وميلا فى السياسة والولاء

وعلى جميع هذه الفروض التى لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقـة

---

(١) ينضووا : ينضموا .

التى لا تختلف مع اختلاف القول فى أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى على الاجمال

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا فى صحفهم كلاما عربيا مما قبل الاسلام بثلاثه قرون يخالف العربية الموحدة فى عصر الاسلام ، ان صح أن العربية لم تكن موحدة فى أيام شعراء المعلقات ، وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الاسلام بأكثر من مائة عام

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التى يشك المستشرقون فى سبقها للاسلام الى عصر أولئك الشعراء ، أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يؤيد ذلك الشك نوعا من التأييد

أما اذا كانوا على القول الراجح ــ بل القاطع ــ يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها ، وتكلموا الآرامية أو الادومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذى تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الآدومية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لهجة العرب فى الجنوب ولهجة العرب فى الحجاز وسائر أطراف الجزيرة ، فقد أقام عرب اليمن فى الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الاول أو الثانى للميلاد

ولم يصل الينا شيء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو نواس فى نجران ، ولكن اليهود الذين وفدوا الى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلكان انه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم فى مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادر فلم يذكرا لنا زمنا شهداه ، أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة فى اليمن وما جاورها . وأدنى

---

(١) المغربين : أعرب في الطلب بالغ فيه وألح .

من ذلك الى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن الى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز الى اليمن باذن النبى عليه السلام . ومنهم معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب . ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم . فلم نسمع أن وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه او نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم اذا كان ثمة اختلاف

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس فى أخبار هذه الرحلات الماع الى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والاسناد من جيل الى جيل ، فاذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم ، وترجع بنا هذه الاجيال الى أقدم الأوقات التى أسند اليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب الى الشمال

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبى سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا الى النظم بتلك اللغة ، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات ، فاذا بلغنا بالمعلقات عصر هَرِم بن سنان ــ ممدوح زهير ــ وما تقدمه بقليل ؛ فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لاتخلق بين يوم وليلة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية

(١) إلماع : ألمع الرجل الى صاحبه بثوبه : أشار .

لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه

ومن عسف القول[1] ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية الى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية ، فاذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء ان ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة الى اليمن مستندا الى الدليل أو غير مستند الى دليل على الاطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم الى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية اليهم فى وقت واحد ، فانه بذلك ينكر نسبتهم الى كل أصل معروف فى الجزيرة العربية ، ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الأصول

وان من ينكر انتقال قوم من اليمن الى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للانكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة .. وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الانكار ثم يجزم بحصر اليمانية فىحدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال أن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شىء أن يقال انها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك فى الحقيقة مشكلة تزال

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ اليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وان اعتساف التاريخ هنا لأهون فى رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت الينا ويفلحون فى ذلك التلفيق . اذ معنى ذلك

(١) عسف القول : القول الذي ينطق به من غير تدبير ولا روية .

« أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الامزجه والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير، ومزاج العربيد(١) الغزِل امرىء القيس ، ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب اليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن اساغته بغير برهان ولغير سبب الا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وان تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال

وشتان ــ مع هذا ــ النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها اذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الاسلام يرفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالاقناع ..

فمما يتكلفه العقل اذا تقبلها أن يجزم ــ كما تقدم ــ بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية ، غيرَ معتمد على أثر فى ذاكرة الأحيــاء ولا فى ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتهــا على الأنساب وبقايا الاســلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر ، وتنوعه على حسب الأمزجة

(١) العربيد : السيء الخلق الذي يؤذي اصحابه وخاصة في حال السكر .

والدواعى النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الاسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالطه الانتحال والكذب الصريح

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وأن يتعذر فيها الاجماع بين الرواة ، فان العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتهـا ويطول العهد عليها ويعول أصحابها على الذاكرة والاسناد ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الاهواء للاضـطراب والحذف والاضافة عن قصد أو بفعل النسيان والاهمال .. فاختلاف الرواة اذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو الى الشك أو التكذيب

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه . فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد نسقط هـذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر الى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى جد عسير ولو أراده الملفقون ، فمما يروى عن امرىء القيس انه تعجب من اعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته . وسأل احدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب ؛ ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وانه لم يزل حتى استشرى[1] به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى

(١) استشرى : اشتد وتفاقم .

امرأته ، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الاخبار أن ينسب تلفيقها عمدا الى راوية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الاخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم ينظرون فى النصوص والاسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة « أخذ » انها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة او مصر السعيدة Egypt Felix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabia Felix ومنهم من يقول ان التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى .. وما هى فى وضعها الا كالتغدية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر الى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار .. ومنهم من يحسب ان القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذى نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهى أجهل بآلاتها من عامة الأميين . فالدكتور سنكلر ثسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الاسلام يروى شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات :

دنت الساعة وانشـق القمر عن غزال صـاد قلبى ونفر
أحـور قد حـرت فى أوصافه ناعس الطرف بعينيـه حور[1]
مر يوم العيـد فى زينته فرمانى فتعـاطى فعقـر
بسـهام من لحاظ فاتك فتركنى كهشيم المحتظـر

ويتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين ويضيف الدكتور العلامة الى هذه الأبيات أبياتا أخرى كقول القائل :

أقبل والعشـاق من خلفه كأنهم من حدب ينسلون
وجاء يومَ العيـد فى زينة لمثل ذا فليعمل العـاملون

قال الدكتور : « من الحكايات المتـداولة فى عصرنا الحاضر انه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الايه وهى ــ اقتربت الساعة وانشق القمر ــ سمعتها بنت امرىء القيس وقالت لها ان هذه القطعة من قصائد أبى أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه ، ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفى سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد الا فى سنة الفيل أى سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الابيات المذكورة واردة فى سورة القمر وفى سورة الضحى وفى سورة الانبيـاء وفى سـورة الصافات ، وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف فى اللفظ وليس فى المعنى ، فورد فى القرآن اقتربت وفى القصيدة دنت .. ومن البين الواضح انه يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الابيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن . فاذا ثبت أن هذه الأبيات هى لامرىء القيس حقيقة فحينئـذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها فى القرآن لأنه يتعـذر على الانسان أن أبيات شاعر وثنى كانت مسطورة فى اللوح المحفوظ قبل انشاء العالم » ..

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وانهـا

(١) أحور : الشديد سواد المقلة في شدة بياضها .

ليست من نظم امرىء القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة « ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ الى هـذا الحد من التهتك والاستخفاف والجرأة فى أى زمن من الأزمان بعـد تأسيس مملكة الاسلام التى كانت متسعة الأطراف والأكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها فى مثل هذا الموضوع »

ثم يختم الدكتور كلامه فى هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الأبيات بعد الاسلام فتسقط الشبهة كلها ، فيقول : ان هذه الأبيات ليست كل ما يعترض به المعترضون ، لأن ما تقـدم من الاسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية (١)

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربيـة قبل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم ــ انهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون فى بحث تلك الأبيات وصبا(٢) واصبا لينكروا نسبتها الى الجاهلية ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها الى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية

وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل ، ولا يفدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير

كذلك يتسع سبيل الجدل فى انكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط ، وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة كلمة أو بضع كلمـات ولا يجوز فى السطور والصفحات

فاذا نظر خبير الخطوط فى صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة فى الحكم عليها بالصحة أو التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات اذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة ، ولكنه اذا حصل على تلك الكلمة مكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسير أن ينخدع فيها كما ينخدع فى الكلمة المفردة بغـير

---

(١) من صفحة ٢٥ الى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية

(٢) الوصب : بفتحتين : المرض والوجع • والواصب الدائم •

تكرار ، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف فى الشعر الأصيل والشعر المدخول ، وقد يجوز التزوير فى الشطرة الواحدة أو البيت الواحد اذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز اذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته فى تزوير هذه الأبيات المتفرقات ..

تزوير الادب الجاهلى مستحيل

أما المستحيل ، أو شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب الى الجاهلية ويصطبغ فى جملته بالصبغة التى تشمله على تباين القائلين والشعراء ، فاذا جمعنا الشعر المنسوب الى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين أو كلام الأمويين المتأخرين ، واذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الأموى الأول والشعر الجاهلى ، فتلك آية على صحة العلامات التى تميز الشعر الجاهلى ، وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم فى المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلى والشعر المخضرم ، ان لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه الى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين ..

ان الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والأخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التى تميز بين امرىء القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل وجرير فى وسع راوية واحد ، فقد سهّل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا الى راوية أو رواة ، ولكنه يذهب فى الحالين مذهبا لا سند له ولا سابقة من مثله فى آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الأدبى غير النبوّ[1] والاستغراب ..

وربما كان « سنكلر ثسديل » الذى مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة

(١) النبو : نبا الطبع عن الشيء : نفر ولم يقبله .

والذوق الأدبى مثلا صارخا كما يقال فى التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذى يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التى تتردد بين الشك واليقين ، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعهود فى جماعة المستشرقين ان الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لانهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر الى الشرقى نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه . غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع

فغاية ما يقصدون اليه من أمر اللغة انهم يلتمسون الأسناد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح ، وانهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل انكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان ، وتشكيكهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه الى مطلب بعيد من مطالب الاحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها الى أركان الدار وما فى الدار ، وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، اذ هى أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والاحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لأوانها ، ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة اليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض ..

الفخر باللسان العربى

ان الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لا بد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة فى القرآن الكريم ، وتروعهم بالمعجزة التى يحكونها ان استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال ، ولا بد ــ مع ذلك ــ أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعا كرامة لقريش أو لأرض الحجاز ، ولكنها خليقة أن تسرى الى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من « العجم » على الخصوص ..

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور

فهم فى الشام رعايا دولة الروم ، وهم فى الحيرة رعايا دولة الفرس ، وهم فى اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعا لأنه لهم جميعا يضمهم اليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم ، يلوذون به ، ويأوون اليه ، فكلهم من معبود أو عابد فى حمى من الكعبة لأنهم فى بيت الله

وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة فى الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء . ولا بقية من الفخر لهم غير انهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء

وان ابقاء الاسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الاسلام فى الاحتفاظ بها للعالم الاسلامى فى متسعه العميم بعد عالمه الأول فى الجزيرة العربية

ونكاد نقول ان العرب أقبلت على الاسلام أفواجا ، حين صارت الكعبة الى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الاسلامية ، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الأجداد والعشائر، ان لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على « العجم » أجمعين ؟

قال ستـرابون : انه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال فى روايات شتى أن الحاميين وصلوا اليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الترحل والانتقال من مرعى الى مرعى ومن جوار الى جوار

وفى زماننا هذا ــ من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ــ لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ومنهم الايرلنديون والايقوسيون والغاليون ، وفى كل أمة من هذه الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة وفى مجامع الخطابة والبيان . ولا نرى أحدا يستغرب ذلك فى بلاد الاسبان

ومنهم القشتاليون والباسكيون . ولا نرى فى مصر هنا من يستغرب البيان العربى الفصيح اذا نسب الى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون فى الاقليم النوبى برطانة لا يفهمها سائر المصريين ، فلا موجب لانكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الاخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها ، ومع توافر الأسباب الموحدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم ، ولا تكفى كلمة أو كلمات للحكم بانفصال اللغات ، فان الاقليمين فى قطر واحد لا يتفقان فى جميع الكلمات

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها الى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال الى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعا لهم كلما وفدوا على الشمال ، وذلك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل روادها وتجارها فى الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم فى بحر ايجه وفى ايطاليا الجنوبية ..

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط فى الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الاسكندر واجتياحه لدولة فارس التى كان لها الاشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة فى الاقطار العربية ، وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة فى خليج العجم وبحر العرب والبحر الاحمر . فغلبت طريق القوافل التى تمر بالحجاز على جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التى تلتقى عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب فى كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها

واشتعلت الحروب بين اللخميين على خليج العجم والغساسنة فى بادية الشام فانحصر الأمان أو كاد على طريق الحجاز ، واحتاج النعمان بن المنذر ــ صاحب الحيرة ــ الى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة الى مكة ، فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا انه يجيزها على أهل الشيح(١) والقيصوم(٢) فى أهل نجد وتهامة ؛ ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرا الى سيد من ســادات مكة عبدالله بن جدعان ..

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التى قيل انها من « المنية » بمعنى « القدر المقدور» معبود النبطيين ، وقولهم حانت منبته وحان قدره ، معنى واحد عند عبّاد مناة ..

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحى » الذى اتفقت الأخبار على انه نقل الأصنام من بلاد النبط الى الكعبة انما هى وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وايناسهم بها كلما رحلوا الى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثرا فى اعظام شأن الكعبة انها المفخرة القومية والحرم الالهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين ــ سادة الحيرة ــ أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مضر ومن يواليها ، وهوان سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر الى الدثور ، ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضــاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها الى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشرأبت أعناقها زمنا الى

(١) الشيح : نبات طيب الرائحة مر الطعم . (٢) القيصوم : نبات من الرياحين له زهر أصفر .

كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم ..

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ، ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ[1] والحضارة ومحل العلم والصناعة ، حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الأجناس البشرية . فاذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة ، من أقاربه الساميين الى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين ، ثم تتجلى فيهم — دون سائر الأمم — تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات ، وهى العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا نبويا ، وتحديا ربانيا ، من معجزات الاله التى لا تتسامى اليها قدرة البلغاء فى أمة اللسن والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين الى بحث عن مجهول أو معلوم . فما يجىء الكتاب بهذه المعجزة لأمة خلت من مأثورات البلاغة فى شعرها وجوامع كلماتها ، وما هو بجائز عقلا أن يتحداها القرآن وهى لا تعرف من كلامه شيئا يتجه اليه ذلك التحدى وتدور عليه الموازنة فى عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم ان القرآن نزل فى قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها ، وأما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وانما اصطنعها الرواة اصطناعا بعد الاسلام سندا للقرآن ودفعا للشبهات عنه بين المؤمنين به — فليس من القياس المستقيم فى مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين ، وما كان الجاهلى الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك فى فصاحة القرآن ثم يأتى المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن الا بكلام يخلقه خلقا لينسب الى أولئك الجاهليين ، ولقد حدث نقيض ذلك فى كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها ، فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سندا لا مراء فيه

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية — وليست هى بالضعيفة —

---

(١) البذخ : عظم الشان وعلوه .

فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيه ، وأن ينسى لغة سمعها فى حياته أو سمعها أبوه قبل مولده ، فما كان جيلان أو ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الاخلاف عن الاسلاف ، وانه ليمتنع أو يستحيل أن ينشأ الاسلام فى جيل يجهل اللغة التى تنسب الى شعراء المعلقات واقدمهم لم يسبق جيل الاسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة ، وفى هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود فى حساب النسىء . فكان جنادة بن عوف ناسئا عند ظهور الاسلام ، وسبقه أبوه عوف بن أمية ، وسبقه أبوه أمية بن قلع ، وسبقه أبوه قلع بن عباد ، وسبقهم آخرون الى عهد القلمس من بنى كنانة ؛ فهم فى تاريخ معلوم متسلسل قبل الاسلام بأربعة أجيال

ومن فهاهة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والانساب ، وكلهم يتحذلقون على العلم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى أو الاسلامى من أقدم عهوده ، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق الا اتهام كل رواية عربية أو اسلامية بالتخريف

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة الا انه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف . فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا (Oadita) وثمودا (Thamudida) مذكورتان فى تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد أرم ذات العماد .. وعثر المنقب موزيل التشكى Musil (١) صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل

(١) Northern Hejaz by Musil.

عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه اشارة الى قبائل ثمود ..

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها . ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » .. ويتواتر الخبر عن الجدرى الذى تفشى فى منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزراء القسطنطينية ، ويروى الرحالة بروس (Bruce) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد الى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، ولا يقل عن هذه الاسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد ، بل أقل من جيل

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب ، وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبى هو أيضا تخريف فى زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقى من يدحضه من المؤرخين الأوربيين المعاصرين ، فكتب كرزويل تحقيقه الذى يقول فيه « ان العالم ليونى كايتانى يذهب الى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست الا خرافة من نسج الخيال ، فاليوم يثبت لنا جليا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى فى سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها ــ وهى جميعا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض ــ صدق رواية المؤرخين الذين قصوا أخبار هذه العمارة ، وصحة ما ذهبنا اليه وبطلان ما يدعيه كايتانى من اختراع هذه القصة وتلفيقها » (١)

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩

الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لا تدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعى ادحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف

***

ان الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى الينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها الى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت[1] العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير

والاسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية ، وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الاسلامية

الا أن معجزة الاسلام فى جميع مقدماته ونتائجه ان هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فان هـذه العصبية اللغوية الدينية قد آلت فى يد الاسلام الى دعوة انسانية عالمية لا تنكر شيئا كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولا تعرف ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصـالح يتفاضـل به القرشى والحبشى والعربى والأعجمى وعترة[2] النبى ومن ليست بينه وبين النبى لحمـة غير لحمـة الايمان ..

ونعود فنقول ان شأن اليهودية فى توضيح هـذه الحقائق أعظم من كل شأن لها فى الجزيرة العربية . فمما لا نزاع فيه أن أناسا من اليهود قدموا الى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سـائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الانباط وعرب الحـيرة

(١) استجاشت : استجاش الجيش جمعه . وفلانا استثاره وطلب منه جيشا ومددا . (٢) عترة : بكسر العين : نسل الرجل وأقرباؤه الادنون .

وبادية الشام ، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محترفى التبشير والاستشراق

المسيحية فى الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل الى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل الى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربى كما حدث فى هجرة اليهود ، ولكنها شاعت بين قبائل من العرب فى جيرة الدول التى سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهى بيزنطية وفارس والحبشة ، وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر فى دولة بيزنطية أثر كبير فى توجيه النحل والمذاهب فى بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث فى مدى قرن واحد ان العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ، ثم دانوا بها على مذهب ، وجاء مَن بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع العاهل فى بلاده طائعا له أو مداريا لأمره والا ففى بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه ويتطلق فى تسفيه العـاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع ..

وافلت الى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليهـا عاهل القسطنطينية ، فهاجرت اليها فئات متفرقة من أتبـاع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الانطاكى وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه ببأس الدولة ، ثم عزل ، وتعقبه خصومه بالنفى الى أرض النوبة ، ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت فى السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الانطاكى يناقض تفسير الكتب الدينيـة بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص فى فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول ان الكلمة هى واسطة الخلق ، ويقول أوريجين انها

مخلوق متحدث له الشرف على سائر المخلوقات ، وان هـذه الكلمة تجسمت فى السيد المسيح فظهرت على مثال الانسان ، وآخرون يقولون ان جسد السـيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الانسان ، وأنه فى لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع ، وصيحته عند الصلب لم تكن « ربى ! ربى ! » بل كانت : قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص

***

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين فى الحجاز من السوء والضلالة ، فيقول فى مقدمته للترجمة « من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجأوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يَعاقبة ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل نجران والحيرة .. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى أساقفه فى مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان .. يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء . وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقـامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم »

الى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشـات لا تكاد تنقضى وانتقض حبلهـا بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية

كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القسان(١) والأساقفة، ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته، ويحيل القضايا الى هواه . ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط ، يكون له عليهم الولاء ، ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحة(٢) على منصب الاسقفية ــ أى أسقفية روته ــ ما أفضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما .. وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية ... هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . أما فى بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك .. فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل ان أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب ، حتى لا نقول نشأت فيها ؟ ! فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدعة كليريين .. وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. »

***

فالحالة التى تمثلت بها النصرانية فى جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية

(١) القسان : جمع قس ، وهو عند النصارى من كان دون الاسقف وفوق الشماس . (٢) المشاحة : المنازعة والمناقشة .

ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود اليها الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولا فضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح فى سائرها ، وترمى الذين لا يتبعونها بالكفر والضلال ..

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء فى سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى

قال عز من قائل : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً[1] وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم[2] وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

***

هذه حالة النصرانية فى الحجاز كما عهدها النبى عليه السلام قبل مبعثه ، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لا من مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كان ذلك فى أمر النبى أو أمر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين أو المتحنثين[3]

وينبغى الاحتراس من قول القائلين ان أحدا من أولئك المتحنفين أو الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية ، فكل ما يصح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الايمان بالاله الواحد أهدى وأحكم من الايمان بالنصب والاوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين زيد

(١) نقيبا : المنتخب من القوم عن فيهم المقدم عليهم . والرئيس الاكبر فيهم .
(٢) عزرتموهم : عظمتموهم . (٣) المتحنثين . الاتقياء المتعبدين .

ابن عمرو بن نفيل انه « وقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل المولودة وقال أعبد رب ابراهيم .. وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : « يا معشر قريش ! والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيرى . ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكنى لا أعلم »

***

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت اليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق النبى عليه السلام باسمه أمامها ، فانه كان يطيل القراءة فى كتب اليهود والنصارى ويعلم ان عبادة الاصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الايمان بأى الديانتين ، وغاية الأمر فى نصرانيته كما قال ابن هشام انه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » .. وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه ، أحدهم ابن نفيل ، انهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شىء .. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم ! التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شىء »

قال ابن هشام : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون انهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان الا ليقربوهم الى الله زلفى ، وسنرى فى الكلام على الكعبة ان الحقبة التى سبقت بعثة النبى شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس[1] التى اختصت الحرم وحده بالتقديس وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم فى الجاهلية . فقد كانت الحقبة اذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها لتستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر فى غيرها ، وقد كانت هذه الحيرة فى جانب من جوانبها ، على الأقل ، أثرا من آثار الجامعة

(١) الحمس . جمع حمس بفتح فكسر وهو الشديد الصلب في الدين والقتال .

القومية أو أثرا من آثار الشوق الى ديانة جامعة غير ديانة الاصنام المتفرقة ، لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به ، أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة ..

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة الى الاشتراك فى عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص فى كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقربهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه ابراهيم عليه السلام ، وقديما نسب الحجازيون أنفسهم الى اسماعيل بن ابراهيم ونسبهم اليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب

***

وان أصدق وصف للحالة الدينية فى عصر البعثة الدينية انها حالة نقص فى كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط انها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير ، ولم يكن المتدين منهم جميعا يتنبه الى الابتداع فى أمر الدين الا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف فى الشعائر والآراء الى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب ، وتصطدم البدعة الجديدة اذن بالعصبية القومية كلها فى ابان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجىء أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة ، وانما فاجأتهم من دعوة الاسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذيادا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار ..

فالوحدة القومية مهدت للاسلام الى حد محدود ، ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة

الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة الى قوة أكبر من قوة القومية التى اعتز بها المشركون وخلطوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة فى التراث القديم ..

فبالوحدة القوميه تمهدت طريق الاسلام ، وبقوة الاسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الانسان وعبادة رب العالمين

***

ولم نذكر فيما تقدم عاملا من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية ، وهو يوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب عني الفرس وارتجت له الجـزيرة العربية بالفخر والأمل فى مطلع العصر الاسلامى وعند ولادة النبى عليه السلام ..

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس فى مقدمة العوامل الكبرى ، ولا ننساه هنا لنحسبه منها ولا نقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذى قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التى لحقت بها فى أوانها . ولعل وثبـة ذى قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الاولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع أمراء الحـيرة وشـواهين[1] الدولة غلبت الدولة على الامارة وقضى الأكاسرة والشواهين على المناذرة والنعامين ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية فى الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التى ولدتها ، وانما كانت أم الأمهات فى هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان

---

(١) شواهين : جمع شاهين وهو من جوارح الطير من فصيلة الصقر .

النبوّة المحمديّة

أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود اليها فى الكلام على الكعبة المكية، ونرجع بتاريخنا الى أوائل النبوات لنمضى بها الى ختامها بالرسالة المحمدية ، فان تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الانبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة ..

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء الى الأبناء ..

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور ، أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحى منها البشارة أو الانذار ، فان شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم

عنهم فى معابدهم ومحاريبهم ، مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبـادة ليقترب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من اشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه ..

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائى » الملهم الذى يختاره الاله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الأمر ، لأن كلام الرائى كان يحتاج الى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه واضطرابه اذ كان الغالب على الرائين انهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصرع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبـور ، ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الالهى فى الطب القديم ..

وكان اليونان يسمون الرائى ماتتى Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره ، قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبى بمعناها المأثور فى الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظا فى الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا فى الأزمنة الغابرة . فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد ما يقوله والرائى يساق اليه ؛ وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فان الكهان فى هذه الحالة يجمـدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى

السلطان فى بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع ، فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى أمانته وايمانه ؛ ويحدث بينهما ما حـدث بين « أمصيا » كاهن بيت ايل وعاموس الرائى ، اذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « أيها الرائى اذهب .. اهرب الى أرض يهودا وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك »

***

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كمـا وجدت فى سائر الأمم ، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى الا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة .. اذ وجدت كلمة النبوة فى اللغـة العربية كما قلنا فى كتاب أبى الأنبياء « غير مستعارة من معنى آخر ؛ لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى.. والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر الا معنى الانذار .. وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس .. وهم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا وهو أيوب »

ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية (١) فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر Holscher وشميدت Schmidt فانهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين

---

(1) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم الى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ، وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر ، وأضعف من شأن النبوة عند بنى اسرائيل خاصة أن الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل الى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ما تقدم من النبوءات

وغلبت عليهم فى مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الالهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شىء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى واقباله بجملته على الله

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات «اذ أرسل شاول رسلا لأخذ داود، فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون، وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء .. فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل »

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضه النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة الى النشوة أو الغيبوبة فينطلق

لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج ..

وفى سفر صمويل قبل ذلك « أنه يكون عند مجيئك .. الى المدينة انك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر » ..

وفى سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج »

وقد ينعزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « وقال بنو الأنبياء لأليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب الى الاردن »

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الاعراض ولم يقبلوا عليهم كل الاقبال ، ورجعوا الى التجربة فى التفرقة بين النبوءات ، وعقيدتهم فى ذلك ما جاء فى سفر التثنية خطابا لموسى عليه السلام : « وأقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبى وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه »

وعلى هذا انقسم المتنبئون أقساما ثلاثة : نبى يتكلم باسم الرب ، ونبى يتكلم باسم آلهة أخرى ، ونبى يتكلم باسم رب اسرائيل ولكنه

يطغى بما فى قلبه على وحى ربه ، فيخلط بين ما يقوله هو بلسانه وبين ما يجريه الله على لسانه ليبلغه الى قومه

والمرجع فى التفرقة بين الانبياء الى صدق النبوءة ، فاذا امتد الأجل بالنبى حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهانا منبوذا بين قومه كما حدث للنبى أرميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الانبياء ، وقد حكى ذلك فقال فى الاصحاح العشرين : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فقبلت .. صرت للضحك كل النهار .. وكلهم قد استهزأ بى . لأنى كلما تكلمت صرخت .. ناديت ظلم واغتصاب .. فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه ، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى .. »

نبوءة الاحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المتنبئين لم يتطلعوا جميعا الى مكان النبوة العليا ــ نبوة القيادة والتعليم والتشريع ــ ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شىء غير الأحلام والرؤى وجيشان الشعور والحاحه على صورة واحدة ، يعجز المتنبىء عن صرفها فيجهر بها صارخا كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج فى نفسه لا يقوى على كتمانه . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر فى منامه ، فيفضى بها الى قومه مخافة الكتمان وحذرا من أن يكون هذا الكتمان نكوصا عن الدعوة وممالأة على العصيان والفساد ، وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هاتف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذى « سمع قبل أن ينطفىء سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتا يدعوه » ويعود الى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دانيال الذى قال ان « الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمة الماء ويتكلم معه ويقول له انه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » .. ومنهم من كان يستعظم

الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال أشعيا : « انى هلكت لأنى انسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » الى أن قال « ان عينى قد رأتا الملك رب الجنود فطار الى واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمى وقال ان هذه قدست شفتيك فانتزعت اثمك وكفرت عن خطيئتك »

وجاشت نفس أرميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم ألقى اليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعوب » فاستكثر النبوة على سنّه ، وقال فى صلاته : آه يا سيد الرب من أين لى أن أعرف الكلام وأنا ولد ، فمد الرب يده ولمس فمه وقال : ها قد جعلت كلامى فى فمك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس ..

ولقد خشى الأنبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبئون ، لأنهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل وأشفقوا من فتنتها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة واتباع الأرباب المحرمين فكان من وصايا سفر التثنية التى تنسب الى موسى عليه السلام « انه اذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم . لأن الرب الهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب الهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم .. وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب .. »

الا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل فى عهد أنبياء بنى اسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجرى

على أيدى الرسل كما جاء فى سفر الأعمال ، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التى صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات .. وكان الى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة « بكل خديعة الاثم فى الهالكين »

وجاء فى الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتدرون على ذلك الى آخر الزمان .. « ومن فم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فانهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم »

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل اسرائيل ظهر فيهم مئات وآلوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الأكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة فى جميع الأديان ، ولم تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لأنهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والأدم ، وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح اليهم الدهماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الأمهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم وينفوهون أمامهم بأطراف من الأقاويل يفسرون رموزها بما يطيب نهم ولايشعرون منها برهق شديد ، لأنهم لايحملون مؤونتها اذا أخذت مأخذ الجد والجسامة ، بل ترتفع الى أيدى ولاة الأمر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين نقائضها أو يستخدمونها فى تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين ، ولا يقولونه بألسنتهم ، خوفا من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع اذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسورا للقبائل ورؤسائها ، حتى اذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض للقبائل كل يوم ، لأنهم لا يظهرون الا اذا احتاجت القبائل الى تغيير شامل فى معيشتها

وأخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة الى بلد ناء أو قتالا مع أهل البلد الذى هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجديه مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق فى القيادة المطاعة ، وانما الخطة المجدية هنا هى الانقياد للدعوة التى يخشى على من يعصيها أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين . فلا يلبث النبى الكبير أن ينزل فى منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو اليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان

دليل الامان

ان مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الأنبياء الكبار هى أعلى ما ارتفع اليه نظر الأقدمين من بنى اسرائيل وغيرهم الى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم ما لم يطلبوه قط من ذى ثقة أو مقدرة بينهم ، فاتت هذه المطالب كافة الى غاية واحدة : وهى أن النبى « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يبلون تعليمه وهدايته لأنه دليلهم الى الطريق الأمين

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لأنه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال

ويجب عليه قبل كل شىء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال

ولبثت مهمة النبى عندهم معلقة على دلالة الأمان فى المكان المجهول والزمان المجهول ، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة نشبه تلك الأخطار التى تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين . فمنها أخطار الخراب

وأخطار الوباء وأخطار المصائب فى الأقارب والأعزاء

ولم يبلغ أحد من أنبياء بنى اسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذى ينسب اليه بنو اسرائيل ، أو موسى الذى يدينون له بالشريعة ، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التى لا فكاك منها ، وهى دلالة الأمان بالمعنى المتقدم ، أو دلالة الأمان كما يترقبها المرء من المراصد ومكاتب التأمين ؛ وان تكن قائمة على الهداية والتعليم ..

فمن نبوءات يعقوب يفهم انهم كانوا يعولون عليه فى رصد النجوم ، وان كل اسم من أسماء الأبناء يشير الى برج من بروج السماء ، ولا نستقصى الأسماء هنا بل نشير منها الى مثلين يغنيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة .. لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب »

وهذه اشارة الى برج الأسد ، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماح أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد فى البروج برج يشير الى علامة الملك Seonis Rogulus الذى تخضع له الملوك ..

أما مثل شمعون ولاوى « فأخوان ، سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى .. لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوأمين ، وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل .. وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان (١)

وسواء صحت هذه الاشارات الى الأبراج والنجوم أو كان فيها مظنة

---

(١) The Oracles of Jacob by Eric Barrows

للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء بأسمائهم واضحه لا تحتمل التكذيب

وموسى الكليم طالبه القوم من اسرائيل وغير اسرائيل فى مصر بقدرة على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه الى تكليفه أن يهيىء لهم الطعـام الذى يشتهونه صنوفا بعد صنوف وهم فى وادى التيه ، بمأمن من جند فرعون

واحتاج القوم الى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الاتن .. فقال شاول للغلام : فماذا نقدم للرجل ؟.. لان الخبز قد نفد من أوعيتنا ، وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟» فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة »

ولم يخل بنو اسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما خلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول فى وادى النيل وبين النهرين ، وكان الانباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الأولى من مهام كبـار الأنبياء ، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين الى جانب مصير الأمة كما قال النبى عاموس فى بيت ايل : « أنت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ولا تتكلم على بيت اسحق .. ولذلك قال الرب : ان امرأتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل . وأنت تموت فى أرض نجسة ؛ واسرائيل بالتسبى سبيا عن أرضه ... »

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعا فى بنى اسرائيل قبل البعثة الاسلامية بنحو تسعة قرون . لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبنى اسرائيـل خاصة الى النبوة الدينية ، ولم يفهموا النبوءات الأولى وما لحق بها غير

(١) السحور تجور فى الامر احتمله واغمض فيه .

« ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فسل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »

وقد كان الناس ينظرون الى حوادث الفلك فيحسبونها من الايات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك كسفت الشمس عند موت ابراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس انها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه اليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد .. »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهى هداية الضمير الانسانى فى تمام وعيه وادراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديما على التأثير فى العقول من طريق الحس المخدوع

فليس فى النبوة سحر ولا كهانة ولا هى شعر يزخرفه قائله : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

***

ولا بد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بهم أقوامهم . لأنها جمعت كل ما قيل عن الأنبياء بين أولئك الأقوام فى العصور المتطاولة . فاذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو اسرائيل وان النبوات كانت وقفا على بنى اسرائيل والمتنبئين غيرهم من الأمم . فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمتنبئين التى وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعا فى القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين . ويرميه مكذبوه بالجنون « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون »

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون »

الفهم الذى عهدوه . فلما ظهرت النبوة الاسلامية لم تكن تكرارا لتلك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لها من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والدعوات ، وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغى أن تكون ونفت عنها ما ليس ينبغى لها من شوائب الأوهام ، وأولها انها مرصد للحوادث يحمى الطريق أو مكتب للتأمين يقارض[1] القوم على الأمان من الأخطار ..

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب « انما الغيب لله »

***

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو »

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الىّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » ..

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »

وآية الآيات مسألة « المعجزات » فى الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة اذا أرادها خالق الكون كله ، وخالق السنن التى يجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل اذا أصر على اللجاجة فى باطله :

« .. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

(١) يقارض : قارض زيدا مالا أقرضه اياه ، وزيد صاحبه جازاه .

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون »

واذا رموه بالسحر وحده قالوا انه السحر الكاذب ، تمييزا له عن السحر الذى كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب »

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة ــ كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين ، ومن وصفها مخترعا فهذا هو العجب العجاب ، ومن وصفها مطلعا فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها ، وهو النبوءة الخالصة لهداية الضمير ..

***

ان المتنبئين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم ، وان من المتنبئين فى بنى اسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع فى المحراب ، وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الانذار بالحوادث والاخطار . فاذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هى الكرامة التى تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء ؟

ان الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات اذا لم تكن نبوءة للهداية وللانذار والبشارة : « أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .. »

وهذه هى النبوّة المحمدية ..

وهذه هى النتيجة التى لم تأت من مقدمتها ، أو هذه هى النتيجة التى لم تأت من جميع مقدماتها

وهذه هى آية العمل الالهى بين أعمال الناس

سيّد الأنبياء

نشأة الأنبياء

ان وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبى التى أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فاذا عرفنا نشأة النبى بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله فى هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبى منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته

ولكن غرائب التاريخ فى أمر الأنبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التى تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين ، وهى الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم ، فلا يحصى التاريخ شيئا من هذه التفاصيل عن نشأة نبى من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط

وعلى هدا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الأنبياء المذكورين فى العهد القديم فى مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التى نشأوها والوجهة التى اتجهوا اليها

خليل الرحمان

مهما يكن من بداءة الخليل ابراهيم فالأقوال متواترة على زعامته لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق الى شماله ومن شماله الى أرض كنعان ..

كانت مهمته اذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم ، وكان عليه أن يتولى هدايتهم فى شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان

وينبغى أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الالهى كان خطرا محذورا قريبا ممن تعبدوا لجميع الأرباب فى الديانات الأولى ، وأن ايمان الناس بالاله فى العهود الأولى انما كان على أقواه ايمانا بحماية الرب الذى يعبدونه دون سائر الأرباب ، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم ، وقد كان ابراهيم الخليل زعيم أسرته الذين هاجروا معه ، فكان عليه أن يهديهم الطريق ، وأن يهديهم كل طريق فى هجرة الجسد والروح ..

وتتفق الأقوال على أن ابراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه الى الكفران بالأصنام ، وليس فى هذا ما ينفى زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوى قرباه وتابعيه ، فربما كان الخلاف على الاقامة والمصانعة وارضاء ذوى السلطان بشىء من المداراة ، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة ، وقد رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها فى سلالة ابراهيم حين يؤمرون بعبادة انسان أو اقامة الصنم مقام الاله الدى فى السماء ، فلعل المفترق بين ابراهيم وأبيه انما كان على عبادة جديدة اقحمت على القوم من هذا القبيل ، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل فى طريقه ، وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين ..

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة ، ولكنه يذهب بعيدا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة «اتون» وكفروا بعقيدة آمون ، فلما انقلب الكهنة على الوحدانية

التى جاءت بها عقيدة اتون تحول موسى الى المستضعفين من اليهود فى أرض مصر لينشر بينهم هذه العقيدة فى الاله الواحد ، وأضاف اليها ما تلقاه من العلم بدين « يهوا » حين نجا بنفسه الى صحراء سيناء والتقى فى أرض مدين بنبى الصحراء

ألف فرويد المشهور — وهو اسرائيلى — كتابا خاصا عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام الى الأسرة المصرية المالكة ، وقال ان اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التى تشبه اللواحق فى أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس . وقصته فى الماء على رأى فرويد تقابلها فى البابلية قصة سراجون الملك الذى وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهدا عائما من السلال

وقد توسع فرويد فى تخمينه فقال ان ادوناى التى أطلقها العبريون على الاله انما هى آتون أو اتوم المصرية ، وان موسى عليه السلام وفق بين عبادتين ليقنع بنى اسرائيل بدعوة اخناتون ، والى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة

وليست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ الا أسلوبا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرا لبواطن المريض . وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لا تعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية ، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضا متضاربا من فروض الخيال

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى اسرائيل ، بل فيها انكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له

أحدهما : « من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ ألعلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس ؟ »

ويرجح برستيد ــ أحد الثقات فى التاريخ المصرى القديم ــ أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء ، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا اليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيئة الدولة ومطالب بنى اسرائيل

وعلى خلاف الصورة التى تخيلها (ميكال انجلو) للرسول العظيم يؤخذ من أوصافه انه كان وديعا « حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » كما جاء فى كتاب العدد من العهد القديم ، وأنه كان يشكو حبسة فى لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء فى سفر الخروج : « لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان ، قال له الرب من صنع للإنسان فما ؟ .. أما أنا هو الرب . فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .. »

ولم يخطر له بادىء الرأى أن يقود قومه فى خروجهم من مصر ، ولم يكن على أهبة للرسالة الدينية قبل هجرته الى صحراء سيناء ولقائه فى أرض مدين للنبى العربى الذى يرجح الأكثرون انه نبى الله شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبى علوما شتى فى شئون التبليغ والقيادة ، ولم يزل يتعلم منه كما جاء فى كتب العهد القديم بعد عودته الى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب اليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعا بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد[1] الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور ..

---

(١) لدد : شدة الخصومة .

فالسنوات التى قضاها الى جوار نبى مدين كانت هى فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لاخراج بنى اسرائيل من مصر واحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولا بد أنه قد جاس خلال تلك الصحراء ووطىء بقدميه أماكن الرحلة التى لا بد منها قبل المقام على استقرار فى ذلك الجوار

ولا شك انه كان يصغى الى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته ، وانه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والالهام

فلما عاد الى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له فى البقاء ، ودعاهم اليه باسم الله فأطاعوه بعد لأى ومجاهدة ؛ ولم يظهر من سلوكهم معه انهم خفوا الى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة واقناع عسير

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فانهم أسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو انهم يعودون اليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء ، وخطر لهم ان الاله الذى دعاهم موسى اليه انما غرر بهم ليهلكهم ويعفى على آثارهم ، واحتاجوا فى كل خطوة الى توكيد الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية لا تفهم الا على خطة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغى أن تكون

هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى اسرائيل ، قبل غيرهم بالابلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاة الأمور

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب[1] سيناء وكنعان ، وطاب

(١) سهوب : جمع سهب بالضم : المستوي البعيد من الارض في سهولة.

الخمسة الأولى من العهد القديم الى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها اليه وبعضها الى الأنبياء من تلاميذه وتابعيه ، فان أنبياء بنى اسرائيل جميعا من عهد موسى الى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة ، وهى تحذير بنى اسرائيل من عبادة اله غير الاله الذى دعاهم اليه صاحب الشعيرة[١] ، وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه ، واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء الياس وأرميا وحزقيل من أشد النعاة على بنى اسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة ، ولم يكن هم الياس الا أن يحذرهم عاقبة « اغاظة الرب » اذ كان عمرى قد ملك على اسرائيل .. وعمل الشر فى عينى الرب وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن نباط وفى خطيئته التى جعل بها اسرائيل تخطىء لاغاظة الرب بأباطيلهم .. وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة »

ولم تكن رسالة أرميا الا كهذه الرسالة حيث أنذرهم فى بعض مرائيه قائلا : « .. انكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ... الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كى يغيظونى ... » ويمضى النبى منذرا متوعدا ناعيا على عشائرهم جميعا « انهم أبوا أن يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت اسرائيل عهدى الذى قطعته مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ اسرائيل : « اننى آخذ بيت اسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم .. وان كل انسان من بيت اسرائيل أو من الغرباء المغتربين فى اسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه الى قلبه .. ويجىء الى النبى ليسأله عنى فانى أنا الرب أجيبه بنفسى وأجعل وجهى ضد ذلك الانسان وأجعله آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبى .. فاذا ضل النبى وتكلم كلاما فأنا الرب

(١) الشعيرة : ما يفعله المؤمن عند أداء فريضة . ومنه شعائر الحج كالوقوف والطواف والذبح .

له مقام البادية فلم يستعظم المشقة فى دعوة قومه الى مثل هذا المقام ، تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر الى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى اقناعهم باسم الاله الذى اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الاله عند أيسر دعوة وبغير اغراء على الترك فى أكثر الأحيان

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد فى تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها الى العبادة التى دعاهم اليها

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا . لا تعمل هكذا للرب الهك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب »

وحذرهم من الأنبياء « فاذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى .. »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا : « نذهب ونعبد آلهة أخرى .. فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللئام الى عبادة أربابها : « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف »

واذا سمع عن أحد من اسرائيل « انه يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء .. فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة .. وأرجمه بالحجارة حتى يموت »

***

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال ــ تأييدا أو تفنيدا ــ لنسبة الكتب

قد أضللت ذلك النبى وسـأمد يدى عليـه وأبيده من وسط شعبى اسرائيل ... »

فشعب بنى اسرائيل لم يستغن قط عن الاقناع المتتابع للايمان بالاله الواحد الذى دعاهم اليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الاقناع لحمله على النجـاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل فى الطريق يحتاج الى تجديد هذا الاقناع فى كل مرحلة ويحن الى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وايوائه الى الفرار عند أرض كنعان

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لا مصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة الى موسى والكتب التى نسبت الى الأنبياء من بعده ، فخلاصة هذه النشأة ان كليم الله تربى فى مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصرى الذى صرعه موسى انتصارا لرجل من بنى اسرائيل ، ولم يكن خاطر الخروج ببنى اسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين عشائر قومه ، ولكنه عاش فى البرية الى جوار الهداية النبوية فى أرض مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر فى أسرته وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الالهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد الى مصر لاقناع قومه بدعوته واقناع السادة الحاكمين بها ان تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته ، ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بنى اسرائيل حيث استطاب البقاء ، لأنه رأى لهم مصيرا فى البادية أكرم من هذا المصير ، ورأى أن العقدة التى دعاهم اليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل فى أرض البادية أو أرض الحضارة

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة فى حياة الكليم عليـه السلام ..

وقد عرضت لنا فى خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التى أشارت اليها كتب اسرائيل من بعيد ولم تذكر بشىء من التفصيل فى غير القرآن الكريم ، ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذى يغنى عن كل دليل على صحة الأصل الأصيل

قلنا عن مدن القوافل فى كتابنا عن أبى الأنبياء ابراهيم الخليل : « أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ، وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال ، فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المعاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى أو بانفاق اموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول الى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع — أى البتراء — فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار »

ان آفة مدين هى آفة هذه المدن على مدرجة الطرق (١) ، وان قصتها فى القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق ، وليس أدل على حدوثها

(١) مدرجة الطريق : معظمه ووسطه .

من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت فى مواضع مختلفة من السور واحداها سورة الاعراف

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثرتم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، الدين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا[1] فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين »

***

فرسالة شعيب عليه السلام انما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم ، والأغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التى تصلحها فى ابان الحاجة اليها ، ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل واخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا اخبارهم فى كتاب

(١) يغنوا فيها : غنى في مكان كذا بقي وطال مقامه فيه . (٢) آسى : أحزن .

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة فى بنى اسرائيل بظهور عيسى عليه السلام ، ولا نعرف عن نشأته فى طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة الى الثلاثين مبعثه الى قومه من بنى اسرائيل ، ولكن نشأة العصر كله من وجهة الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا الى ذلك فى كتاب « حياة المسيح » ..

ففى عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعدا مقدورا فى عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود ..

وكان اليهود فى عصر الميلاد فريقين : فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام ، وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلا خاصا فى جرزيم .. « ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود .. وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم الاسرائيليين .. »

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر ، لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى » وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كان ألف سنة كما جاء فى المزامير ، وان عمر الدنيا أسبوع الهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر

موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل ــ يوحنا المعمدان ــ كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يتعمّد على يديه ، أو يأخذ العهد عليه ، وان بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بن عمير ... »

ولا شك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته الى اسرائيل وابتغى منها الهداية « لخراف بيت اسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم فى الاعراض عنها ، فوجهها الى كل مستمع لها مقبل عليها ، وقال لهم ان العاملين بالخير ذرية لابراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة ، لأنهم هم أبناؤه بالروح ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعوون اليها ... « فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الىّ بمن تراه من المساكين ، فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف

الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى ، فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع ، لأن الشريعة الدينية كانت فى أيدى أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت فى أيدى أتباع قيصر ، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذى لم يسبقه اليه سابق من المرسلين فى تصحيح الشرائع بجملتها ، فقد حطم عنها قيود النصوص ونقلها الى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبى هم أتباعه بالروح وان لم يكونوا من ذريته بالجسد ، ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير فى ضمير الانسان لا فى مظهر من مظاهر العالم فان ملك ضميره فقد ملك كل شىء ، وان ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوى فى هذه الرسالات :

فمنها الرسالة التى تنطوى فى تكاليف الزعامة ، فتأتى الدعوة الالهية لتسكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم فى جميع الشئون ..

ومنها الرسالة التى تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها فى وجه الأمم الاخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها الى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التى ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، اذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة أمة ، ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل أحد بما يبتغيه ..

رسالة محمد عليه السلام رسالة الهية قوامها أن الله حق وهدى ، وان الايمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الايمان أعلى وأقدس من كل ايمان لأنه ايمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر ، عليه من أمانة الهداية ما على الأنسان للانسان ، زعيما كان أو غير زعيم ..

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة ، لأنها ايمان بربم العالمين ، ولا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى ..

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الاسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة فى جميع البقاع والأرضين

نزاهة العبادة

تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوى كما وصفه الاسلام بين النقائض التى تقدح فى العبادة النزيهة

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من أمة من الأمم فى عصر الدعوة الاسلامية كانت صور النعيم السماوى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الايمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق أن يسمى دينا يسوى بين الصالحين والمفسدين ، أو يحجر على النفوس أن تطمح الى النعيم الذى ترتضيه

انما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التى يتصف بها الاله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون

وأنزه العبادات ــ ولا ريب ــ هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الايمان به هو الصدق والصواب

هذه العبادة أنزه من العبادة التى تتجه بها الأمة الى الله لأنه يقوم لها مقام الحارس فى وجه الأمم التى تخشاها ، وهى أنزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود أو العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة

أمانة انسان يدعو بها اخوانه فى الانسانية ، ويرفعها مكانا فوق مكان انها نشأت فى جزيرة العرب حيث لا غرابة ان تكون الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على الاجمال منفعة محدودة فى وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والأرضين

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى ، وهذه هى رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الاسلام على خمس فرائض : هى الشهادتان ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج الى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق ، فحيثما وجد المسلم ففى وسعه أن يؤدى صلاته و « أينما تكونوا فثم وجه الله »

واذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم فى مسجد معلوم

ويحتاج المسلمون الى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون اليه لأن وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ، وشأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

***

واذا حج المسلم الى بيت الله فليس فى بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملى عليه شعائره ، وانما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فان

جهل حكما من أحكام الحج فانما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج فى قبوله الى وساطة من وسيط

ويصح للمسلم أن يؤدى زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها ، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها ..

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الانسان وربه ، قد تفهم على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هـذه المصادفات ، لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت الى غايتها فى الاسلام فالاله فى العقيدة الاسلامية منزه عن المشابهة والمقاربة والرمز والمحاكاة . وليس كمثله شيء ، ولا وسيلة لانسان الى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون

***

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن يدينوا للاسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الالهية ، وأيسر من ذلك عليهم أن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة فى الصحراء ، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز الى الفخامة بروعة البناء ..

ولكن العقائد الدينية نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من الصحارى قبل الاسلام ، ولم تنشأ فى احدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الانسان وطبقات من الأرباب دون مقام الاله الواحد المنزه عن الأشباه والنظراء ، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والأوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم الى الله زلفى ، ولا يحسون انها تناقض طبيعتهم الصحراوية فى التدين والعبادة ..

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه فى هذا الصدد ، ان الأمم التى تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البنـاء انما كانت تثوب الى

هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين أتباعه وبين الله ويضفى من قداسته ما يشاء على ما يشاء ، فاذا وجد فى الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر البناء ..

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الاسلام يحارب سيطرة توجد فى الهياكل وتوجد فى صوامع الصحراء وخيامها وفى التوابيت التى تحمل من مكان الى مكان كتابوت بنى اسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التى تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين .. « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .. وكل مسلم منهى بحكم دينه أن يقتفى آثار الأمم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ..

***

فليس لرئيس الدين فى الاسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وتلك هى الفريضة العامة التى يندب لها من يقدر عليها من ورثة الأنبياء ، وهم : « .. أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

***

هذا موقف للانسان فى الكون كله بين يدى الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب ، تقدم به الاسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الالهية الكثيرة التى تقصر عنها السوابق والمقدمات

دين الانسانية

قلنا فى صدر هذه الرسالة اننا نتتبع فيها المقدمات ونقسمها الى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التى تأتى بعدها ، ومقدمات غير كافية لا تفسر جميع النتائج التى تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها

ونحن نرى فى فصول هذه الرسالة تفاوتا بين المقدمات فى كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت فى مقدمات دين الانسانية ولا فى مقدمات النبوة كما بسطناها فى موضعها فلو أن جميع الأديان التى عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الانسانية جميعها من جزيرة العرب على الخصوص

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الانسانية فى هذه الخصلة ، فقد وجدت أديان تدعو الأمم الى التوحيد قبل دعوة الاسلام، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوى بينهم وترى لهم حقا واحدا فى عبادتهم ، بل كانت تدعوهم الى عبادة ملك واحد فى السماء وملك واحد فى الأرض ، كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة

وقد جاءت الدعوة الى التوحيد قبل الاسلام عن طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، اذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوى على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة أميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح لها الصفة « العالمية » وتحسب الأرض كلها عالما واحدا خاضعا لشريعتها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ،

ولا يأتى هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والارشاد ، بل يأتى على سبيل القهر والاخضاع وتجريد المغلوب من سادته فى الأرض وسادته فى السماء على السواء

وعلى هذه السنة جرى الرومان على اخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الامبراطور » فى هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافا بمساواتهم ، بل فرضوه لاخضاعهم وتحريم كل معبود فى الدولة غير معبودهم ، وهكذا صنع غير الرومان فى مصر وبابل والبلاد الفارسية

ان هذا « التوحيد » وجد قبل الاسلام

ولكنه أبعد شيء عن دين الانسانية الذى نعنيه ، وهو الدين الذى يتجه الى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة الى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة الى توحيد الانسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وايمان واحد باله لا اله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح

لقد كان الاله عند العبريين يسمى اله اسرائيل ويخص من أبناء ابراهيم ذرية يعقوب بن اسحاق دون سائر العبريين

قال يوشع : « هكذا قال الرب اله اسرائيل »

ويقول الشعب فى كتاب الأيام : « ألست أنت الهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد .. »

وقال داود فى سفر صمويل الأول : « مبارك الرب اله اسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم »

وفى سفر الأيام : « خلصنا يا اله خلاصنا ، واجمعنا وانقذنا من الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك .. مبارك الرب اله اسرائيل من الأزل الى الأبد .. »

ويطمئن بنو اسرائيل الى هذه الحظوة وان لم يستحقوها بولاء أو ايمان ، ويتنبأ المتنبئون والأنبياء فينعون عليهم خيانة الاله كما جاء فى سفر أرميا : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وايای تركوا وشريعتى لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لى .. »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير ان الله يريدهم شعبا له : « واجعل عينى عليهم للخير وارجعهم الى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفونى انى أنا الرب فيكونوا لى شعبا ، وأنا أكون لهم الها ، لأنهم يرجعون الىّ بكل قلوبهم .. »

ودامت هذه العقيدة الى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة أرفع منها وأعدل وأقرب الى المساواة بين الناس ، فكان يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو ايمان ، ويخاطب القوم كلما تمادوا فى اغترارهم بالنسبة الى ابراهيم الخليل قائلا : ان الله قادر على أن يخلق لابراهيم أبناء من حجارة الارض ، فان لم يخلصوا فى ايمانهم فلا أمل لهم فى الخلاص

وتحولت الدعوة المسيحية من بنى اسرائيل الى الأمم على الرغم من بنى اسرائيل ، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فانظره .. وقال ذاك : انى اشتريت ازواجا من البقر وسأمضى لأجربها .. فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بنى اسرائيل الا بعد اعراضهم عنها واصرارهم على الاعراض فى كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت اليهـا دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة فى تقديمهم على غيرهم من الأمم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيد ! يا ابن داود . ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم اليه تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسَل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد ! أعنى .. فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب .. فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك ما تريدين .. »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين الى الأمم غير مقصورة على بنى اسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق بابراهيم من أبنائه بالجسد ، اذ كان المستجيبون للدعوة أبناء ابراهيم بالروح ..

***

واذا روجع تاريخ الأديان قبل ألفى سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الانسانية على اختلاف أصولها وأجناسها

وقد وجدت فى الصـين شعوب بلغت فى ذلك العهد مائة مليون أو تزيد ، ووجدت فى الهند شعوب تقاربها فى العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الانسانية الى دين واحـد بل كانت الصين تدين بعبـادة الأسلاف ، كل بيت له هيكله وعبادته على حدة ، وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الأحبار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات

المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاماريشي فى بعض كتب الفيدا : « اذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب فى أذنيه »

***

هـذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون ، وتقف المقدمات عند هذه الدعوات ، ثم يستمع النـاس الى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الانسان جميعا الى دين واحد واله واحد وحق واحد :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبـائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

« وما أرسلناك الا كافة للناس »

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل اليه فيقول فى تفسير هذه الآيات : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » ..

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هـذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعمـاق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات

وبقيـة تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم ، فان الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين ، بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة[٢] التى يعترف بها النظراء ويعنو لها المكابرون .. وهـذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس انهم اذا صلحوا واستقاموا « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »

(١) مشتجر : اشتجر الشيء اشتبك وتداخـل بعضـه في بعض .

(٢) ذؤابة : ذؤابة الجبل أعلاه . وفلان ذؤابة قومه أي أعلاهم واشرفهم .

المسئولية الفردية

وللديانة الانسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فما لم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لانسان ولا لجملة الناس

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية ، بسيطة سهلة الفهم . تتجدد الحاجة الى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة الى تطبيقها لما خلا المجتمع الانسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منـذ أوائل عهد الانسـان بالاجتماع ..

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الاولى . لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع الى سلطان واحد . اذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه الى قبيلة المعتدى عليه ، فان لم تسلمه « تضامنت » فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر الى الأبناء والأعقاب

فمضى نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامهـا القديم . فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة ورعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة ــ التى كانت تسمى أم الشرائع ــ جعلت الأب مسـئولا عن الأسر وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انسانا مستقلا بحياته

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنـة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة

تلك الجرائر والآثام الى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد

وعلى هذا تعاقبت الاجيال على اهمال المسئولية الفردية فى أطوار البداوة وأطوار الحضارة ، ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية فى عصور الأسر القديمة ، ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها الا اليسير

***

ولا نطيل فى شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الاسلام ، ولكننا نشير الى طرف منها للابانة عما انتهت اليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الاسلامية

ففى سفر التكوين أن « نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا .. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته .. »

وفى سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى فانهزم الاسرائيليون .. « وأجاب عاخان يشوع وقال حقا انى قد أخطأت الى الرب اله اسرائيل .. رأيت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها .. فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم وادى عجوز .. فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه »

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده ، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته

***

أما الدعوة الاسلامية فالمسئولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها انها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس لأول مرة فى تاريخ البداوة والحضارة « أن ليس للانسان الا ما سعى » وأن جيلا من الأجيال لا يؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

و « كل امرىء بما كسب رهين »

***

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الاسلام وحده مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة[1] من نوافل الرأى على حواشى العقيدة ، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ . اذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب

---

(١) نافلة : النافلة : العطية يتبرع بها معطيها من صدقة أو عمل خير · ما تفعله مما لم يجب عليك · ومنه نافلة الصلاة ·

وفى بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الاسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة
فتركتها قفرا بقاع اسحما
وأعان عبدالله فى مكروهها
وبمثل عبدالله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبدالله فلبى فى رحلته (٢٥ يونية سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الأعشى يخاطب ناقته :

فكعبة نجرانَ حتمٌ عليـ ـكِ حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيدَ وعبد المسيح وقيسا همُ خيرُ أربابها

ويقول بعض المؤرخين ــ ومنهم أبو المنذر (١) ــ ان هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة ، لم يكونا من بيوت العبادة ، وانما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة ، فقال بعضهم انها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها ، وأن بنّاء من الروم عمل فى بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بنّاؤها من الحبشة ومنها ــ أى من الحبشه ــ عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء

وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الأصل بجذوره وجذوعه عليه ..

فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبائل العربية لم تبن

---

(١) انظر « الاصنام » : ٤٥

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا الى حديث الكعبة أو الكعبات التى ثابت جميعا الى قبلة واحدة : هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف

يدور البحث ما يدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من احدى نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها ..

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت الاقيصر وبيت ذى الخلصة ، وبيت صنعاء ، وبيت رئام ، وبيت نجران ، وبيت « مكة » أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد

وكان بيت الاقيصر فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذى عناه زهير بن أبى سلمى بقوله : (١)

حلفتُ بانصاب الاقيصر جاهدا وما سُحقتْ فيه المقاديم والقملُ

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى ان النبى عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وان الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزا بين الكعبتين ..

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون اليه وينحرون عنده فطلب حبران « يقرآن التوراة » من ملك اليمن أن يأمر بهدمه « لأنه شيطان » يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه

(١) البيت فى هذه الرواية فى « الاصنام » : ٣٨

تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشىء لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة فى اللغة الرومية ، وانما وجدت الحاجة الى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة الى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التى تقدمت فى هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود الى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين فى الحجر والمعدن والحديد من شواطىء البحر الابيض الى جواره فى الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعا لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والانكار عند المعتقدين بها

ولم نعرف أن معبدا سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التى يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبا اذا كعب ثدياها ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهى من القصب أو من الأقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت فى لغتهم الى القانون وهو العصا التى تتخذ للقياس

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال ، فالأمر الذى لا يجوز فيه الشك ان « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدا اخترعها لتعبد وتقصد ، وانما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة ، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن الى الشام

ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها الى شـواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها . فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادى الصحراء . فهى ـ أى مكة ـ مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه ، وهى ان لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت الى هذه الحالة بعـد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة انهم كانوا يعشّرون[1] كل ما دخلها من تجارة ..

***

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعيّة ولا نجاشية ، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والاكراه

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهى قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم فى التوراة ، فانها هى « ميشة » المشار اليها فى سفر التكوين وهى « ميشا » التى يقول الرحالة « برتون » انها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون انها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئـين الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطىء الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلمـا ترددوا عليهـا فى

---

(١) يعشرون : عنسر المال أخذ عشره .

تجارتهم من أقدم عهود التاريخ ، فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والاحرام

ومن المحاولات التاريخية التى لا شك فى بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يتدخل مكة فى حوزة الروم ، وأن تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطىء اليمن الى مشارف الشام ..

***

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين ، وكانت تحذر دولة الروم لأنها كانت تملك الوصول الى بلادها من وادى النيل وتسلك طريق البحر الاحمر فى نهايته القصوى ؛ فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرباط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وسفر[1] ابرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشواطئها ، فبنى «القليس» فى صنعاء ؛ ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس أو الطلاء . فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج اليها وكتب الى النجاشى يقول « انه ليس بمنته حتى يصرف اليها العرب أجمعين » .. فقيل فيما قيل ان أناسا من العرب كانوا يذهبون الى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك ونحدى أربابها أن تصيبه بأذاها ان كانت لها قدرة الأرباب ، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور

هذه محاولة لا شك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن الى الشام

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم ؛ فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكتب

(١) سفر : كشف .

له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم اليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر، وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام اذا هم عصَوه ، وأهون ماهنالك آن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون اليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! ان قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجراب من القَرَظ والعُكة (١) من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أذهب اليه ، وأنا أخاف ان أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه »

***

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ؛ وكلتاهما تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب ، وان دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وانما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها الى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون ، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الاتاوة

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور الى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين،

(١) العكة : وعاء من جلد مستدير

(٢) الاتاوة : المال الذي يؤخذ على الارض الخراجية .

واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصـنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون الى جواره والمتكفلون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير ..

وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ، ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها انها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن الصامت ان أبا ذر قال له : « يا ابن أخى ! صليت مرتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله ! »

***

وجاء فى الأغانى ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة فى صلاته ويقول :

لبيك حقا حقـا تعبـــدا ورقا

. . . . . .

عذتُ بما عاذَ به ابراهيم مُستقبلَ الكعبة وهو قائمُ
يقول انى لك عَان راغمُ مهما تُجشّمنى فانى جاشمُ

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة انهم كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكان صيامهم من الفجر الى مغرب الشمس، وكانت لهم بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان ، وانما يرغبهم فيها انها أعمال ترضى « الاله » وانهم يعرفون الها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون اليه بالدعاء ، وهى

حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون « عبدالله » ويلبون فيقولون اللهم لبيك ، ولا يدعون أحدا من الأصنام « رب البيت » فاذا قالوا « رب البيت » أرادوا به ربا فوق جميع الأرباب

اننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها الى قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده ، وقسم يتصل بنتائجه ويسير من مبدأه الى غايته فى مجرى الحوادث ، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة

وقد سميت الكعبة « الحمساء » وانتسب اليها « الحُمس » وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة ، فيقضون زمنا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار ، ويحرمون على أنفسهم فى الأشهر الحرام أكل الاقِط والسمن ، ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت فى غير الثياب الاحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء اذا لم تكن عليهم هذه الثياب

***

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه أناس من علية قريش : لينصرُن كل مظلوم ، ويردُن الحق الى كل مغصوب ، وليكونن يدا واحدا فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغصبه اعتزازا بماله أو بعصبته وحزبه ، وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية فى دعوة واحدة ليست لذى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للاكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين ، بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله

---

(١) الاقط : الجبن يتخذ من اللبن الحامض .

أسرة النبيّ

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة ، وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت[1] الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس

ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها أجداد النبىعليه السلام من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الايمان بها فى مآزق الشدة التى يمتحن فيها الايمان بحب النفس وحب البنين ، فيغلب الايمان على حب المرء لنفسه وحبّه لبنيه ..

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية الى ما بعد الاسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندّين متناظرين فى هاشم وأمية الا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء[2]، وينعقد الاجماع أو ما يشبه الاجماع على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين وبقى الكثير منها الى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفتدوه

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب الى نفيل جد عمر بن الخطاب ، اذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا[3] :

أبوك مُعاهر وأبوه عفّ ... وذادَ الفيلَ عن بلد حَرامِ

(١) السمت : هيئة أهل الخير ، والهيئة مطلقا . (٢)مسنوء : مكروه .
(٣) مذود : المذود من الانسان لسانه .

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية : « رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقود عبده ذكوان » .. قال معاوية « ذلك ابنه أبو عمرو ؟ » قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف الا انه عبده »

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » ..

قلنا فى كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج الى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه .. وخلاصة قصته ان رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل فلواه بحقه[1] ، وأبى أن يرد عليه بضاعته ، فقام فى الحجر ، أو فى مكان على شرف ، وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم الا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد والا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة[2] وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف . فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول »

وربما خفى السبب الذى يرجع اليه هذا الفارق بين الأسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع الى النسب المدخول ، وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة فى عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الاسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذى يقولون انه من آبائهم . ويقول النسابون انه عبد مستلحق على غير سنة

---

(١) لواه بحقه : لم يعطه حقه . (٢) جفنة : قصعة .

العرب فى الجاهلية . ومما يعلل به هذا الفارق أن بنى أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون اليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم ، وأنهم أكثروا من الرحلة فى بادىء الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النّعم وأرباح التجارة ، وليس بالبعيد أن «المعاهرة» التى أشار اليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست فى أخلاقهم شيئا من خبائثها ، وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين انما كان من قبيل تلك الفوارق التى نراها بين الأخوة كأنهـا قسمت بينهم ميراث الأخلاق ، فذهب أحـدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الاثرة والدعوى ..

وأياً ماكان سر هذا الفارق البيِّن ، لقد كان بنوهاشم ــ أسرة النبى ــ أصحاب رئاسة ، وكانت لهم أخلاق رئاسة

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة ، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التى ترسـل ارسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشـمه الثريد ودعوة الجياع الى قصاعه :

عمـرو الذى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون[1] عجـاف[2]

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سنها

ومكانته فى غير قريش ، وفى مدن التجارة خاصة ، تدل عليها مصاهرته لبنى النجار فى المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عمرو التى كانت ــ لشرفها

(١) مسنتون : أسنت القوم : أجدبوا ، وأصله السنة بمعنى الجدب .
(٢) عجاف : جمع أعجف وهو المهزول .

وعزتها ــ تأبى أن تتزوج الا أن يكون أمرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر الى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام . وقد كان المعهود فى بنى عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا فى ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة فى رحلاتهم وأسفارهم ، ومات أكثرهم فى غير وطنهم ، فمات هاشم بغزة فى الشام ومات عبد المطلب برومان الى ناحيـة من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلمان فى العراق

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع ، ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصاه فى عهد مناظره حرب بن أمية ، فكان كلاهما نمطا فى بابه من طرفى العقيدة والأريحية وطرف السعى والحيلة

وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين ، مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الايمان طبيعة فى وجدانه ، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله ، ويعنينا منه أنه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والايثار

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسـماء فى جميـع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة ..

بل كانت مناقبه مُطّلبيّه تدل عليه ولا تصدر من غيره ، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة ..

هذه طائفة من أخباره لا تفتقد فى واحدة منها تلك المناقب المطلبية التى تعز على خيال المتخيل ما لم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع اليه ..

وصل ابرهة الحبشى عـام الفيل الى أرباض[1] مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسأل عن « أمير مكة » ويبلغه أن ابرهة لم يأت لقتالهم وانما أتى لهدم البيت الحرام فان لم يمنعوه فهم فى أمان من

(١) أرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينه من بيوت ومساكن .

حربه . فلما لقى الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة ابرهة قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم فان يشأ منع بيته وحرمه وان لم يشأ تخلى عنه ، ووالله ما عندنا من قتال

قال الرسول : انطلق معى الى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب انى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الابل التى ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب فى نظر أبرهة وقال له : أتسأل عن البعير وتترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الابل ، وللبيت رب يحميه . فأمر برد ابل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هدياً[1] الى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
فامنعهم أن يخربوا قراكا

هذه هى « المطلبية » التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم : لا تهور مع القوة الطاغية ، ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها . وقول يناسب كل مقام ، فاذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الابل لأننى أضن بأثمانها فاننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكننى سألت عنها لأنها هى موضع سؤالى ، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من ابرهة لبيت الله ينفى الثقة بالبيت وبالله ..

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك فيه ، وهو فتك الجدرى

---

(١) هديا : الهدي بوزن غني : ما أهدي الى الحرم من الانعام .

بجنود ابرهة: وانهزامه عن البيت وخوفه من أن يتقدم اليه بأذى ، وانه لخبر قد يسهل انكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله فى الانكار ، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا (فى سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف ..

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبية انه عاش زمنا قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به . وعيره عدى بن نوفل ابن مناف يوما فقال له : أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك ؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم : أبالمقلة تعيرنى !؟ فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد لأنحرن[1] أحدهم عند الكعبة !

وسنعود الى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله أبى النبى عليه السلام ، ولكننا نجتزىء هنا بأن نقول اننا لا نسقطها لمجرد اختلاف الروايات فيها ، فان أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لا ننكر وقوعها لهذا التناقض ، وقد اختلفت الرواة فى عبدالله بن عبد المطلب هل هو أصغر أبنائه جميعا أو أصغر أبنائه من أمه ، وهل بلغ ابناؤه العشرة او حسب منهم أبناء الأبناء ، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفناه وكما يجىء فى سيرة عبدالله

وملتقى الروايات فى هذه القصة انه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم باسم عبدالله . فهم بانفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش، وتنادوا بينهم : لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه ، فان يكن فداء فبأموالنا جميعا نفديه

واحتكموا الى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الابل . قالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الابل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا ولدكم »

---

(١) فذ : الفذ الفرد . (٢) قدح : القدح بالكسر : السهم قبل أن يراش.

يقول الرواة : وعادوا الى مكة فقربوا عشرة من الابل وضربوا القداح فخرج القدح على عبدالله ، وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة ، فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها انس ولا وحش ولا طير

ومن أخباره ان قريشا خاصمته فى ماء زمزم بعد أن احتفرها وعارضوه فى احتفارها ، فاحتكموا الى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون ، وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمىء أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم ، فجمع أصحابه وسألهم : ما ترون ؟ قالوا : رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت . قال : فانى أرى أن يحفر كل منا حفرته فيواريه فيها أصحابه اذا مات ، حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله .. ثم بدا له رأى أصوب من هذا الرأى فقال لأصحابه : والله ان القاءنا أنفسنا بأيدينا للموت هكذا دون أن نضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لهو العجز . فهلموا نرتحل ، ولم يذهبوا فى طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته ، فشربوا وملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا الى الماء فقد سقانا الله . فقال أصحابه : لا نسقيهم والله لأنهم لم يسقونا . قال : نحن اذن مثلهم ، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته فى ماء زمزم وسلموا له السقاية التى كانوا ينفسونها عليه

ويروى عنه انه كان له جار يهودى يسمى أذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتيانا من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصى خبره حتى علم باغتياله ومن أغتالوه ، فأبى ألا ان يكره حربا على الدية وأخذ منه مائة ناقة اسلمها الى ابن عم اليهودى وارتجع ماله الا شيئا هلك فارتجعه من ماله ..

وهذه هى المناقب « المخصصة » التى نقول انها لا تجرى مجرى الطابع والوتيرة ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح أصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمل ، وهى مناقب لا تخترع ولا يضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع الى الخبر الواقع . لأن الرواة المخترعين فىهذه الحالة انما ينقلون عن صورة أصيلة تمت فى أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها ، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها

ففى كل خبر من هذه الأخبار « المطلبية » ايمان وحزم ووفاء وجرأة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع ، وانما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ، ويفعل واجبه كما يراه ..

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين ، لايغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر ، وأولهما فى هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية ؟

فاذا كانت صورة الرجل فى الأذهان هى علة الاختراع فهناك حقيقة اذن ماثلة وراء هذه المخترعات ، وهنـاك دلالة فى اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها الى البحث عما تدل

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شـخصية قوامها الايمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى وكلها صفات جديرة بآباء الأنبياء والمرسلين

عبد المطلب

ولد عبد المطلب فى المدينة وسمى « شيبة » تفاؤلا له بطول العمر فى أسرة لم يكن طول الاعمار من خصائصها ، وتربى بعيداً من آل أبيـه

فصدق عليه فى طفولته قول القائلين فى عصرنا : ان الطفل أبو الرجل . لأنه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى أباه بينهم ، وحز ذلك فى نفسه فجعلت أمه تسرى عنه وتحدثه عن آل أبيه ومآثرهم فى جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه الى رؤيتهم والاقامة بينهم ، بيد انه أحجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم الى المدينة لأخذه الى مكة ، وبصر بأمه فى الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستمهل عمه عسى أن يبقيه لديها الى عام قابل ، فقهر فى تلك السن الباكرة شوقه الى أهل أبيه وقد عز عليه فى المدينة أن يناخر بهم لداته بين آبائهم وذويهم ، وقهر فى ابان الطفولة ذلك التطلع الى المجهول وذلك الحنين الى الغرائب وتلك الرغبة فى كل حركة وكل انتقال من مكانه الذى هو فيه ، وقال لعمه بعد أن تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه الى قومه : لن أترك أمى أو تأذن لى بالسفر معك راضية

وفى سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لأن أهلها رأوه مع المطلب لأول مرة فحسبوه عبدا اشتراه ، وجعلوا يدعونه باسم « عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه ، فغلبت عليه

وشب الغلام عزوفا أبيًّا لا يستكين للهضيمة[1] ولا ينزل عن حق له أو حق كان لأبيه ، فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر الى المدينة وعاد الى مكة بعصبة من أقارب أمه وأخواله ، وهم أولو عصبة أشداء ، يشاد بغوثهم فى مدائح الشعراء :

ولو بأبى وهب انخت مطيتى
غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحبا ودعاهم الى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى فتاهم ، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه

وصح التفاؤل فى عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها ومات

(١) الهضيمة : الظلم والاغتصاب .

والنبى عليه السلام دون العاشرة فعهد به الى كفالة عمه أبى طالب شقيق أبيه ..

وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لا تتفرق فيها روايتان ، وهى صدق التدين والايمان بمحارم الدين فى سدانتـه[1] أو فى غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه ، ومن حديثه انه كان يتعصب للعزى التى نمى[2] اليها باسمه . وانه زار أحد عبادها المتنسكين لها فى مرض موته فوجده يبكى ، فسأله : ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكى ولا مفر منه ؟ قال الرجل : كلا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى !

فقال أبو لهب : والله ما عبدت وانت حى لأجلك ولا تترك بعدك لموتك ، فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت ان لى خليفة يرعاها ..

وكانت العزى بوادى خراص على يمين المصعد الى العراق من مكة ، وكانت قريش قد حمت لها شعبا يقال له سقام ، يضاهون به الكعبة ، وهى التى يعنيها أبو جندب الهذلى اذ يقول فى بعض غزله :

لقد حلفت جهـــدا يمينا غليظـة
بفرعِ التى أحمت فروعَ سقام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد منى ، كما يقول نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليـــك رماحنا
والراقصـاتَ الى منى فالغبغب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل الى طلب السيادة والسدانة ، وانه لم يتدين لأنه سادن الكعبة وصاحب المنفعة فى تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا منفعة له فى هذا التعظيم ، وكان الدين عنده ايمانا خالصا من الحيلة ومن مآرب الكهانة ..

---

(١) سدانه : خدمة المعابد وحراستها . (٢) زهره : الزهرة بالضم . البياض والحسن . (٣) نمي اليها : نسب اليها .

ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الايمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ، ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فان الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفى ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لاقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال الا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء

وهذه الطبيعة هى التى ينظر اليها الناظر فى مناقب الأسرة الموروثة ، فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به الى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذى تورث منه خصال الصدق والايمان ، ولكن تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس

أبو طالب

وكا أبو طالب ــ خليفته فى الوصاية على النبى ــ أشبه أبنائه به فى جميع خصاله ومناقبه

والخلاف كثير فى اسلام أبى طالب ، اذ لم يتفق الرواة على اسلام أحد من أعمام النبى غير حمزة والعباس وهما فى مثل سنه ، والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات

ولكن لا خلاف على حمايته له وحبه اياه وصبره على عداوة قريش كلها فى سبيل نصرته ورد أذاهم عنه ، وقد لقى فى ذلك ما يطيق وما لا يطيق ، وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له فى ساعة من أشد ساعات الحرج : « ابق على نفسك يا بنى

ولا تحملنى من الألم ما لا أطيق » ... فحزن النبى وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » ..

فلم يبرح النبى غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا »

وفى رواية ابن اسحاق : « أن رسول الله صلى لله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ان أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ! ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا ابراهيم .. بعثنى الله به رسولا الى العباد ، وأنت ــ أى عم ــ أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه» .. فقال أبوطالب : « أى ابن أخى ! انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن ــ والله ــ لا يخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت »

وقال ابن اسحاق : « وذكروا انه قال لعلى : أى بنى ! ما هذا الدين الذى أنت عليه ! فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به . وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا انه قال له : اما انه لم يدعك الا الى خير . فالزمه » ..

وبرّ أبوطالب بقسمه ، وحمل السيف فى سبيل نجدته ، وروى القرطبى انه ناجز(١) أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعرى عليه فى صلاته . وكان النبى عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبوجهل : من يقوم الى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؟.. فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا(٢) ودما فلطخ به وجه النبى . وانفتل النبى من صلاته وقصد الى

(١) ناجز ... ناجز الحارس عن نفسه ... حمى نفسه أو نفس ... (٢) فرثا الفرث : ما يكون فى الكرش

عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبدالله بن الزبعرى ! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم . فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون ، فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفى ، فقعدوا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول

وقد تكفل أبو طالب بالنبى فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفا عليه من اساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر الى الشام والنبى فى نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه . فلم يغو على مفارقته وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا ..

ولقد كان الرجل الجليد يذكر أخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع ، ويقول : ما أشبهه بعبدالله ! وقد كان أبو طالب وعبدالله ــ كما تقدم ــ أخوين شقيقين ، ولم يثبت قط ان هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته الى أن جهر بدعوته . ولم يخالف هذا الاجماع من أخبار أبى طالب والنبى أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الانعام : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه . وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون »

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان ينهى عن أذى النبى ولا يدين بدينه ، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبى ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير . وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم ان أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص : « انك لا تهدى من أحببت » .. فان سورة الأنعام

قد نزلت بعد سوره القصص كما جاء فى كتاب الاتقـان ، فلا هداية ولا جدال ولا نهى عن أذى النبى بعد الوفاة

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجاه والكرامة ، وتبدو لنا من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التى تجمع بين الطيبة والقوة . فاننا نعلم انه كان يلقب بسيد الأباطح ، وانه كان يخرج للتجارة آنة بعد أخرى ، وان أباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بنى أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه فى هذا ولا ذاك ، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقى ضنكا[1] فى شيخوخته وأن النبى قد أعانه بكفالة ابنه على وتربيته فى داره ، ونعلم كذلك أن النبى لم يكن على حال من الوفر[2] قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته فى ربح أموالها ، فمصير ابن عبد المطلب وحفيده الى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبىء عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين فى البيت المعمور ، فأكبر الظن أنها كانت مغرما يأخذ من أموالهم ولم تكن مغنما يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سـعة التجارة التى عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل ان أحدهما سنّ لقريش سنة الرحلتين الى الشام واليمن — لما وصل اليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين

ولقد مر بنا من نجدة أبى طالب لابن أخيه ما تتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت فى الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ، فقد اسـتجار به أبو سلمة صاحب بنى مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره ، فمشى اليه رجال من بنى مخزوم فقالوا : يا أبا طالب ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بى وهو ابن أختى . وان أنا لم أمنـع ابن أختى لم أمنـع ابن أخى . فغضب ابو لهب فى هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا : يا معشر قريش !

---

(١) ضنكا الضنك : الضيق من كل شيء . (٢) الوفر : الغنى .

والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ . ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فخشى زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين فى النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله فى دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وانصرفوا راغمين ..

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه فى رواية لا نثبتها ولا ننفيها أن أبا طالب لما أحس الموت « جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ! .. انى أوصيكم بمحمد خيرا فانه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قَبِله الجَنَانَ ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر الى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها . يا معشر قريش ! كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى .. »

وهذه الوصية لا يثبتها القارىء لها على هذا الأسلوب الا أن تكون لسان حال لا لسان مقال ، والا أن يكون ما قيل بعض لفظها وبعض معناها ، ولم يكن كل ما جاء فيها

العباس وحمزة

وعمّان آخران : غير أبى طالب ، كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات ، وهما العباس وحمزة ، وكلاهما أخ لعبدالله غير شقيق

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الأناة ، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات ، مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بنى العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاة من كل رئيس مطاع فى هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين ..

وحمزة فارس الفرسان فى خلائق الفروسية كلها ، من شجاعة وصدق وايمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن اسحاق فى قصة اسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة(١) ، فلما مر بالمولاة ــ مولاة عبد الله بن جدعان ــ قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل اذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ ذلك علىّ ان استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فانى والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا .. »

قال القوم : ما نراك يا حمزة الا قد صبأت

فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك .. أنا أشهد انه رسول الله ..

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما

(١) شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وقوة القلب . وفلان شديد الشكيمة أي أبي لا ينقاد .

الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهما كان يحتفى بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة ، ووهب له أبو لهب جاريته ثويبة ، ترضعه وتخدمه فى طفولته ، ولا نعرف من أخبار الزبير ما ينبىء عن صفاته وكفاياته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه ــ ولا سيما فى علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة ــ غير قليل ..

***

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا فى نصرة النبى من آمن منهم به ومن لم يؤمن ما عدا أبا لهب وبنيه ، وفيه نزلت الآيات : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »

وتعليل هذا الشذوذ انه من لوازم الأسر الكبيرة التى لا تشذ منها أسرة ذات خطر فى التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الامور ، كان من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه ان عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم

وكان من علله انفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولا ننسى انها انفة لا تستغرب فى عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة ــ عمى الرسول اللذين أسلما ــ كانا من لداته عليه السلام الا سنوات ثلاثا أو أربعا تقدم بها العباس فكان لها أثرها فى تأخير اسلامه سنوات

***

وكان من علل ذلك الشذوذ انه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبى فى مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبأة ، واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك وان أقمت علـــه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش

(١) تبت : خسرت . (لا) مسد : ليف .

وتمدهم العرب .. فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشرٍّ مما جئتهم به ..

وفى مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم الى ما تحب ، فامض لما أمرت . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك . غير ان نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب ..

قال أبو لهب : هذه والله السوأة[1] . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .. وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب ، وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنّه ما بقينا ..

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة والحيطة ، فيزعم انه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويجنبهم ما لا يطيقونه من جهاد العرب ، وانه فى طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه ، ويخشى ما يصيبه من جراء انقياده لو سلست له كبرياؤه ..

***

وليس من العلل التى تنسى فى هذا المقام انه كان زوجا لأخت أبى سفيان ، وان ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتى رسول الله ، وبين الزوجتين والزوجة إحنٌ[2] لا تهدأ ، ولا تزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء ..

وأيا ما كان من أبى لهب ، فهو الشذوذ الذى يستغرب ألا يكون ، وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وصفاته وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعة وطيبة وفهم واقبال على المعرفة وايثار للمعروف ..

أسرة لا تخرج النبوة ، وما خرجت قط ، من خير منها ..

ونشأة النبى عليه السلام فيها أصدق المقدمات التى قلنا انها مقدمات التمهيد والتحضير

---

(١) السوأة : العورة ، وكل عمل أو أمر شائن . (٢) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .

الا انها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر ..

أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر ، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبى ينعى على الآباء والأجداد ما كانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الأبناء أن يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم ، ويقول لهم كما قال ابراهيم :

« لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويهيب بمن آمن منهم : « يا أيها الذين آمنـــوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لأن آباءهم لا يعقلون : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

***

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسر بنيها

ولكنه جاءها بالنبوة التى لا يعطيها غير الله !

وكانت الأسرة تمهيدا له فيما ورث منها

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تسهدها السماء

والدا النبي

تلك هى الأسرة العامة التى شملت الأجداد والأعمام ، وللنبى صلوات الله عليه ، مع هذه الأسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبدالله وآمنة ..

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الأبوين الشريفين ، ولكنه أعقب لنا ما فيه الكفاية لبيان أثرهما النفسانى فى وجدان ولدهما العظيم

ندرت فى أبوات العظماء أبوة كأبوة عبدالله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول انها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل ..

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التى فارقها عروسا وعن ولده الذى لم تره عيناه

لكأنما وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الالهية ، ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية لقدر لا تعنى فيه عناية الآباء

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها ، فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن يجل الدعوة ويجل ابراهيم ..

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه الى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد

وحياة" لا تشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبا سابغا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال ..

---

(١) كلاءة : حفظ . (٢) سابغا : كاملا وافيا .

وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبدالله حتى أودعتها من الخواطر والأمانى ما تزدحم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صباه وتفواه يفيض فى جوانب سيرته حتى تستلىء به مائة حياة ..

قيل فى بعض ما قيل من هذه الخواطر والأمانى « انه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الابل لرؤيا رآها ، مرّ على امرأة كاهنة متهوّدة قد قرأت فى الكتب ، يقال لها فاطمة ، فقالت له حين نظرت الى وجهه ــ وكان أحسن رجل فى قريش ــ لك مثل الابل التى نحرت عنك وأبذل لك نفسى ، لما رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فأجابها بقوله :

أما الحرامُ فالممات دونَه والحِلُّ لا حلُّ فاستبينَه
فكيف بالأمر الذى تبغينَه يَحمى الكريمُ عرضَه ودينَه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فمر بالمرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، فقالت فارقك النور الذى كان معك فليس لى بذلك اليوم حاجة . انما أردت أن يكون النور فىّ ، فأبى الله الا أن يجعله حيث شاء »

وفى أسانيد ابن هشام أن عبدالله « انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ثم خرج عائدا الى آمنة فمر بامرأته الأولى فدعته فلم يجبها وعمد الى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ... فقالت له : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت »

قال اسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا ان امرأته تلك كانت

تحدث انه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء أن تكون لى . فأبى على ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله ... »

وجاء فى غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبدالله من آمنة . وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه

وفى كل هذه الأخبار قسط من الصحة لا نهمله ولا نسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فان مجيئه فى السّيَر يثبت لنا معنى صادق الدلالة وان يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور ، ومن كان هـذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان ، وفى سورة سبأ عن سليمان بن داود عليهما السلام : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته[1] فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول فى غير موضع أنه لا يعلم الغيب الا الله ، ويقول بلسان النبى : ولا أعلم الغيب

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة ، والكاهنة التى تريد أن تحمل بنبى لا يخطر لها أن تحمل به سفاحا[2] فيقول لها عبدالله :

أما الحرام فالممـــات دونه
والحـــل لا حل فاســـتبينه

واما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأبى معاشرته بعد ذهابها ــ فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج

فالقصة كلها . وما شابهها من القصص ، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبدالله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال فى عنفوان صباه

(١) منسأته . بكسر الميم : العصا . لان الدابة تنسأ بها أي تساق وتحث على السير . (٢) سفاح : السفاح اقامة المرأة مع الرجل من غير عقد .

ولا نكران لما كان عليه عبدالله من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها ، فقد حفظت لنا رؤية العيان انه كان واخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون الأبصار ، ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب

***

وفيما وصل الينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لأنها تحتاج الى افتنان فى وصفها وتحتاج — مع الافتتان — الى مصلحة مفروضة تدعو الى اختلاقها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق

وتلك هى قصة النذر التى أوردناها فى الكلام على الكعبة ، وهى تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبدالله

وليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال انها مخترعة ، فان اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وانما يُظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو الى الشك فيه ، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا الى نفيه على ثقة أو على ترجيح

وهذه القصة بعينها ينبغى قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلى فى اختراعها والصاقها بعبد المطلب وعبدالله ؛ فقد قيل انها اخترعت لتصوير عبدالله أبى النبى فى صورة الذبيح اسماعيل ، وقيل انها لم تظهر فى الجاهلية قبل البعثة الاسلامية

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول ان جد النبى أوشك أن يذبح أباه قربانا للأصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلى أن يبدع الافتتان فى القصة وفى وسيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل فى الوسيلة والاستخبار الى كاهنة خيبرية تفتى لهم فى

(١) الوضاءة : الحسن والنظافة والطهارة . (٢) غضارة : السعة والخصب وطيب العيش والطراوة .

شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون اليها ؟

ولمَ هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟.. ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان[1] فى القصص مثل هذه القدرة ، ثم خفى أمره ، ولم تأت منه أفنونة مثلها فى زمانها ؟ ..

وهناك مسوغ آخر للظن يبدر الى الذهن اذا كانت هذه القصة قد حدثت لأحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت اليه . كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين . ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبدالله ، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالابل والتقرب الى كعبة تجمع الاصنام من هبل الى نائلة الى اساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبدالله باختراعها عليه ؟

ان لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها . وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها الى منتصف القرن الأول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل : « ان ابن عباس سألته امرأة انها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبدالله بن عمر فلم يفتها بشىء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال انهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الابل ، وأخذ الناس بقول مروان » ..

والحق بين رفض القصة وقبولها انه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها ما يخالف مألوفا من مألوفات زمانها . وقد كان نذر عبد المطلب طلبا عزيز من الاله يبذل له فديته ، وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر ايمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعا ، فليس فى هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الانسان

(١) الافنان : افنن الرجل فى كلامه : تفنن ، وفي خصومته : توسع .

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبدالله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لاخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبىء عن ايمان قوى بالواجب واقدام على الموت فى ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة . فكأى من رجل لاينكر الدين ولا يمرق منه اذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه

على ان الملاحظة التى تستوقف النظر من أمر هـذه الأسرة القوية المباركة ان أخبارها المتناثرة التى ترسل ارسالا فى المناسبات المتفرقة أدل عليها من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تتناثر الأخبار عن أحوالها فى الجاهلية تخلص بنا الى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الأخبار وهى « النظام » الذى تتوخاه فى معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود

فمن هنا كلمة ، ومن هناك خبر ، ومن جوانب شتى أحاديث وروايات ، وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو لهب نفسه ـ وهو الخارج على اجماع الأسرة ـ يأبى فى مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير ـ أبو طالب ـ ما لم يتعوده من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الاسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه انه ينصر محمدا ولا يستمع فيه لملامة بعيـد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم

اما فى سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صـغار الأسرة فى مجالس كبارها . فاذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا فى حضرته لا يبدأون بالكلام الا أن يدعوهم اليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم الى مجلس جده فيقصد اليه ويجلس الى جواره ، وهم مع علمهم باشفاق الجد عليه وتدليله اياه يستدعونه اليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون اشفاقا عليه

ومن نظام الأسرة ان عبدالله خرج بعـد زواجه مع أول قافلة حان

موعدها ولم يتخلف عامه ذاك الى عام قابل . وهو لما يفرغ من عرسه الذى كان خليقا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه فى قصة النذر المشهور . فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجح الأقوال

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته . فان أباه — لا جرم — قد امتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب اليه . فليس أقرب الى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه ، والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده ، ولا سيما الدوام بعد النذر الذى كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية ، وابتئاس الأب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد ..

واختار الأب زوجة عبدالله من بنى زهرة أحلاف بنى هاشم والمطلب فى كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبا وأكرمهم محتدا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش ، وينتهى نسبه لأبيه وأمه الى عبد مناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه الى هذه الأمومة فقال : « أنا ابن العواتك[1] من سُلَيْم »

***

روى الامام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد اسناد متصل : « ان عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود . قال : فقال لى رجل من أهل الديور — يعنى أهل الكتاب — يا عبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر الى بعضك ؟ قال : نعم اذا لم يكن عورة ، قال : ففتح احدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى احدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وانا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فاذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة فولدت حمزة

(١) العواتك : جمع عاتك وهو الكريم من كل شيء .

وصفية ، ثم تزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فلج — اى فاز — وغلب عبدالله على أبيه »

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر . وتبنى على حقيقة ثابتة وهى اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب . واتصال البيتين فى الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة . ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك فى اليمن تنكشف من النظر فى منخرين

***

انتقل عبد الله بعروسه من حىّ وهب الى حىّ عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء الا ريثما اذن مؤذن القافلة بالرحيل

ولم يعد من رحلته تلك الى داره . فانها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد فى هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض الى جوف الضريح

وولد النبى عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ، فأرضعته أمه ، وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبى لهب . ثم عهد به الى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه فى بادية قومها بنى سعد على سنة العليـة من أشراف مكة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من أخلاط مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات فى مقتبل الشباب ، ولكن أسرة أبيـه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد . ثم أعادته الى مكة قبل أن يبلغ الثالثة ، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشى قد صرع وهو معه ، وان رجلين أخذاه فاذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه ، فلما ذهبت اليه حيث تركه ابنها وجدته قائما ممتقع الوجه . فبادرت به الى مكة مخافة عليه ، وطلبت اليها أمه أن تعود به الى البادية تخشى على الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيته المرضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشى وقيامه منفردا فى الخلاء ، فلما عادت به الى البادية أتم رضاعه فيها ولبث

---

(١) السراة : جمع سري وهو السيد في قومه .

معها الى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بنى سعد ، فذاك فخره بعد النبوة اذ يعجب الصحابة من فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبا فى فصاحة عربى نشأ فى بنى سعد وتربى فى الذؤابة من قريش

***

ولم يكد الصبى يطمئن الى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى فقدها رهما فى زيارة لقبر أبيه بالمدينة

وما كان قد بقى فى الدنيا للفتاة الأيم (١) غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين : غربة الموت وغربة المكان

فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل فى مثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الأرض الى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه

فلما قضت حق الزيارة ولبثت فى جيرة أخوال عبدالله شهرا أو بعض شهر ، قفلت بوليدها راجعة الى مكة ؛ فماتت ودفنت فى الطريق

وكل ما وعته السيرة من مرضها انها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام

***

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، يتجد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أم مهجورا فى عرض الطريق

الا ان هذه الفاجعة بما تدل عليه ، أهم فى دراستنا هذه مما خلفته فى نفس الصبى الصغير

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه . ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه اليه بعد فقد أبويه ..

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش — ان عاشت

---

(١) الأيم : من لا زوج لها بكرا أو ثيبا .

بضرباتها ــ الا كما يعيش الأشباح فى ظلمات الحياة ..

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الانسان ، كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب

وتلى ذلك وقفتنـــا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القويه من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل

***

وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس اليه فى عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته الى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك فوته التى دان لها هذا العالم المشهود

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء ؛ وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين ..

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه الى ختام حياته يحيط به كل انسان وكل حى وكل شىء . وانما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه أحد قط ؛ من صاحب أو صديق ..

ولا ندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى الينـــا أن نسأله . وأن نجيب عنه ما استطاع الجواب ..

لقد مات عبدالله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن الا علامة على الضعف والهزال ؛ ان لم يكن من

مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟ ..

ان لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة الى دافع له غير حياة الوليد ، بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل اليهم انهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه ، وأيسرها انه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان

وعجيب أن يصاب الانسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى الى قرابة الأربعين

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين فى حال واحدة : حين يتلقى الوحى ، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال

ولكنه ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنا ما كان قوام البدن الذى تغشاه

ولا نعلم ان أحدا من الأنبياء وُصف لنا كما وصف محمد عليه السلام ، فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته ، وفى يقظته ورقاده ، وفى حديثه وصمته ، وفى جلوسه ومسيره ، وفى ركوبه وارتجاله ، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع ، بعيدَ ما بين المنكِبَين ، غزير الشعر ، تلمس جثّته شحمة أذنيه ، شثْن الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس — أى ملتقى العظام — ولم يكن بالمطهّم ولا بالمكلثم ، ادعج العينين ، أهدب الأشفار ، اذا مشى تقلع كأنما ينحط من صَبَب ، ذريع الخطوة ، سائل الأطراف (١)

(١) المطهم المنتفخ الوجه والمكلثم المدور ، والاهدب طويل اهداب العين مع انعطاف

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبى بشىء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبىء عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع[1] الفم ، يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، اذا أشار أشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها ــ أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها ــ واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا ، جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه فى عرض من اعراض خلل الصرع والاضــطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم

***

الله أعلمُ حيث يجعل رسالتَه ..

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغى أن تكون ــ خَلقا وخُلقا ــ من ميراث الزمن وميراث الأجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو الصالح لأداء رســالته والنهوض بأمانته . ان تكن ضريبة من ضرائب العظمة الكبرى ــ ولا بد لها من ضريبة ــ فتلك هى النقص فى نسله ليستوفى التمام من أمر هذه الذرية الباقية الى يومنا ، وبعد يومنا ، جامعة واعية لكل تابع من تابعيه ، وكل مولود له فى عالم الضمير من بنيه وغير بنيه

وانه لعَلَى خلق عظيم ..

وانه لعَلَى خلق قويم ..

---

(١) ضليع الفم . عظيمه .

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لناتى الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها[1] ، وتعيدها على العالم الانسانى فى نسج جديد

يتيم في غير ذلة ..

عزيز فى غير قسوة ..

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الأريحية من يقين بنى هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية فى أقواها وأمنعها ولكنه يقودها الى عصبية واحدة تضم اليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين ..

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف فى صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه لبس بالجائز أن تعلّمه كيف ينكر أخطاءها ، ويقوم التواءها ويترقى بها من أوشاب[2] الشرك الى صفاء التوحيد

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها الى غير تلك الطريق

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هى بارادة انسان ولكنها ارادة الله ، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء ..

---

(١) تنكث غزلها : تنقض . (٢) أوشاب : أخلاط .

ان المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لها جميع حقوق طبع ونشر كتب الأستاذ عباس محمود العقـاد في لبنان وسائر البلاد العربية ما عدا القاهرة ، والكتب هي :

عبقرية محمد	٦٠٠	حياة المسيح	٧٠٠
عبقرية عمر	٨٠٠	حياة قلم	٨٠٠
عبقرية خالد	٧٠٠	حياة ابن الرومي	٧٠٠
عبقرية علي	٦٠٠	الحسين أبو الشهداء	٦٠٠
عبقرية الصديق	٦٠٠	الحرب العالمية الثانية	٥٠٠
عثمان بن عفان	٦٠٠	خلاصة اليومية والشذور	٥٠٠
عمرو بن العاص	٧٠٠	خواطر في الفن والقصة	٤٠٠
سعد بن أبي وقاص	٤٠٠	داعي السماء / بلال	٥٠٠
جحـا	٥٠٠	رجعة أبي العلاء	٥٠٠
معاوية بن أبي سفيان	٥٠٠	الرحالة عبد الرحمن الكواكبي	٥٠٠
الفلسفة القرآنية	٦٠٠	سـاره	٦٠٠
مطلع النور	٥٠٠	ساعات بين الكتب	٢٠٠٠
التفكير فريضة اسلامية	٦٠٠	شاعر أندلسي وجائزة عالمية	١٠٠٠
الانسان في القرآن	٦٠٠	الشيوعية والانسانية	١٢٠٠
ابن الرومي	١٤٠٠	عقائد المفكرين	١٠٠٠
ابليس	٨٠٠	الفصول	٩٠٠
ابراهيم أبو الانبياء	٨٠٠	المرأة ذلك اللغز	٤٠٠
أبو النواس	٧٠٠	المرأة في القرآن	٥٠٠
أنـا	١٠٠٠	هتلر في الميزان	٥٠٠
فاطمة الزهراء والفاطميون	٦٠٠	مراجعات في الادب والفنون	٦٠٠
ما يقال عن الاسلام	٨٠٠	يسألونك	١٢٠٠
الاسلام في القرن العشرين	١٠٠٠	القرن العشرين ما كان وماسيكون	٦٠٠
الامام محمد عبده	٥٠٠	مجموعة أعلام الشعر	٤٠٠٠
بين الكتب والناس	١٠٠٠	مطالعات في الكتب والحياة	٦٠٠
التعريف بشكسبير	٨٠٠	هذه الشجرة	٨٠٠
حقائق الاسلام	١١٠٠	لا شيوعية ولا استعمار	٨٠٠

جميع المراسلات باسم المكتبة العصرية للطباعة والنشر

لصاحبها : شريف عبد الرحمن الانصاري

بيروت ـ ص.ب : ٨٣٥٥ ـ تلفون : ٢٣٧٥٤٥

فهرس

صفحة

مقدمة المقدمات ٥

الطوالع والنبوءات ٨

مقدمات النبوة ٣٠

الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ٣٧

النبوة المحمدية ٧١

سيد الأنبياء ٨٥

دين الانسانية ١٠٢

الـكعبة ١١٠

أسرة النبى ١١٨

والدا النبى : عبد الله وآمنة ١٣٧

نتيجة النتائج ١٤٩

مجموعة
توحيد وأنبياء

- الله
- إبراهيم أبو الأنبياء
- حياة المسيح
عيسى بن مريم
في التاريخ وكشوف العصر الحديث
- مطلع النور
طوالع البعثة المحمدية

maged1200@yahoo.com

Magd